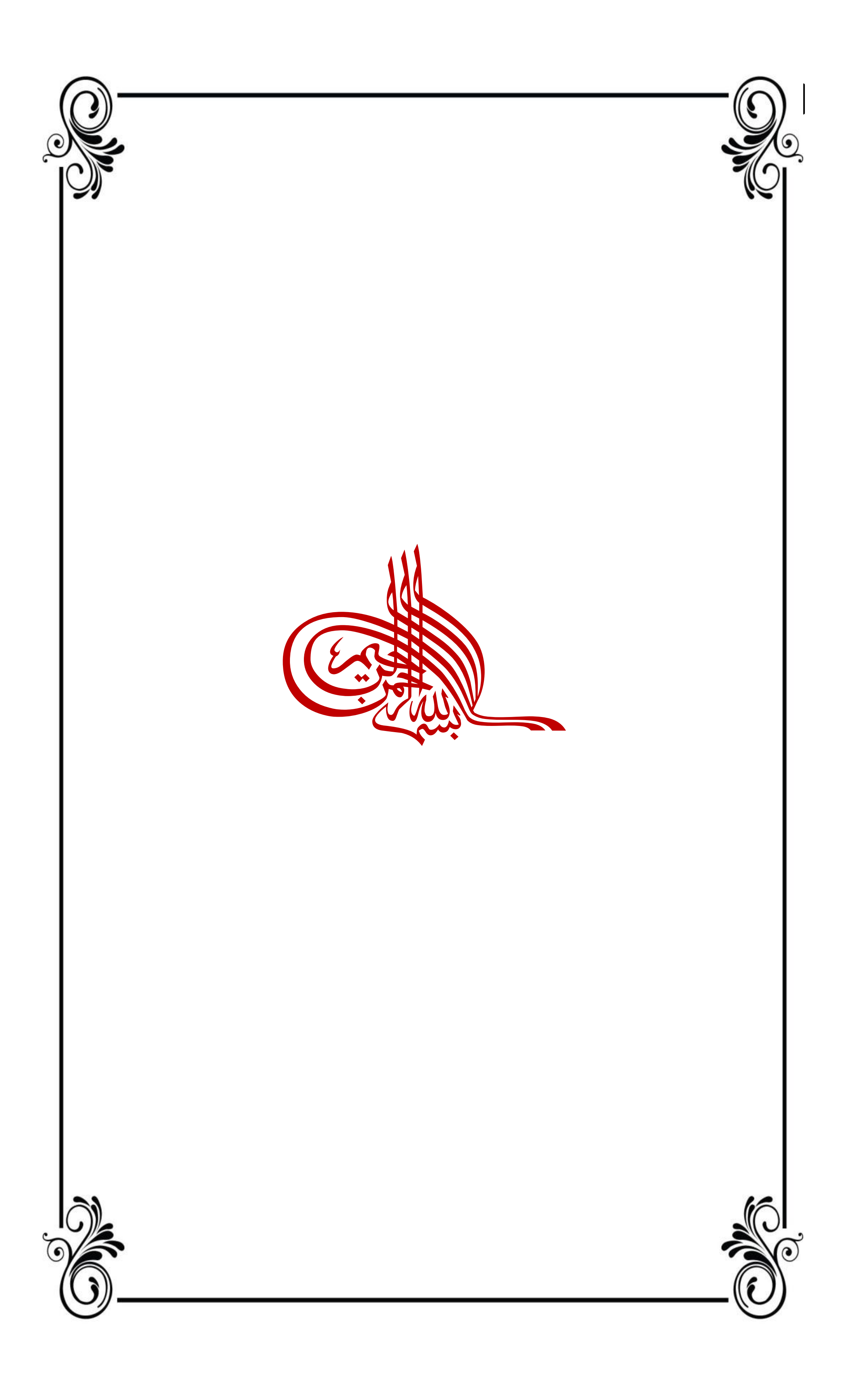




ويُزكِّيهِم


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، أما بعد..

فقد قال الله عزل وجل: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

قال ابن عباس: «يَعْنِي بِالزَّكَاةِ، طَاعَةَ اللَّهِ وَالْإِخْلَاصَ».

وقال سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

قال الحسن البصري: «مَعْنَاهُ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ فَأَصْلَحَهَا وَحَمَلَهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها: أَهْلَكَهَا وَأَضَلَّهَا وَحَمَلَهَا عَلَى الْمَعْصِيَةِ».

فزكاة النفس اسم جامع لتطهيرها من المعصية ونماء خيرها بالطاعة، مع التأكيد على طاعات النفس غير الظاهرة وذنوبها على وجه الخصوص.

لأجل ذلك يأتي الحديث عن زكاة النفس في ترتيب برنامجنا عقب الحديث عن الإيمان ومرجعية الوحي؛ لأن المقصد الأساسي هو تحويل الإيمان والعلم بالوحي إلى سلوك عملي يطهر النفس والجوارح من الذنوب، ويُنمي خير النفس بالعمل والطاعة.

وسينتظم حديثنا ف هذا الباب، عبر الموضوعات التالية:

زكاة النفس مفهومها ومحلها

الزكاة هي عملية تغذية ومداواة للذات الإنسانية، وتحديدًا للجانب النفساني الروحاني القلبي من الذات الإنسانية؛ لأن هذا الجانب هو مصنع السلوك وباعثه والقادر على إدارته.

ولفظ التزكية وإن شاعت إضافته للنفس فيقال: «زكاة النفس»، إلا أن معناه تزكية الإنسان كله بقلبه ولسانه وجوارحه.

وأصل الزكاة: الزيادة في الخير، ومنه يقال: زكا الزرع، وزكا المال: إذا نما؛ وتأتي الزكاة بمعنى التطهير؛ إذ لا ينمو الخير إلا بترك الشر، كالزرع الذي لا يزكو حتى يزال عنه الدغل، فكذلك النفس والأعمال لا تزكو حتى يزال عنها ما يناقضها، ولا يكون الرجل متزكيًا قد زكى إلا مع ترك الشر، ومن لم يترك الشر لا يكون زاكيًا ألبتة، فإن الشر يدنس النفس ويدسيها.

قال الزجاج: معنى ﴿دَسَّىٰهَا﴾: جعلها ذليلة حقيرة خسيسة.

وقال ابن قتيبة: أي: «أخفاها بالفجور والمعصية»[1]

قلت: فكأن الذنوب والمعاصي للنفس بمنزلة الحشيش الضار للأرض يُضعف خيرها ويضر نبتها.

- زكاة النفس مطلب ومقصد من مقاصد الشارع، فإن الدين كله يدور حول زكاة النفس لتعبد ربها بحق وصدق، وتبتعد عن مساخطه ومناهيه بإرادة وعزم.

---

(١) تزكية النفس لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص:٤٢،٤٣) بتصرف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «النفس البخيلة الفاجرة قد دسها صاحبها في البدن، وبعضها في بعض، ولهذا وقت الموت تنزع من بدنه كما ينزع السفود من الصوف المبتل، والنفس البرة الزكية قد زكاها صاحبها فارتفعت واتسعت ومجدت ونبلت، فوقت الموت تخرج من البدن كما تخرج الشعرة من العجين»(١)

- والتوحيد والإيمان أعظم ما تتزكى به النفوس، والشرك أعظم ما يدسيها.
- والمبادرة إلى زكاة النفس فرض لازم على كل مسلم لينال الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

وفي القرآن الكريم قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي زكّى نفسه، وذلك بتنميتها، والارتقاء بها نحو معرفة الله والإيمان به، ومراقبته وحبه والعمل على تقواه، وزيادتها بالخيرات والبركات، وتطهيرها من الذنوب والشرور والآثام، وتهذيبها من الرذائل والمفاسد والأخلاق الوضيعة الفاسدة، وتربيتها على الفضائل والأخلاق السامية، وتصفيتها من رواسب الكفر والنفاق والرياء، والحسد وغير ذلك من الأمراض، وتنقيتها من الأوهام والوساوس والخرافات.

قال تعالى:﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾[النور: ٢٨].

وقال سبحانه:﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[النور: ٣٠].

وقال عز وجل:﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[الأعلى: ١٤- ١٥].

وقال تعالى:﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس: ٩- ١٠].

وقال سبحانه:﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾[عبس: ٣].

وقال عز وجل: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[النازعات: ١٨].

---

(١) تزكية النفس لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص: ٤٤)

فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير، فإنما تحصل بإزالة الشر، فلهذا صار المزكى يجمع هذا وهذا.

أقسام النفس الإنسانية:

١) **النفس الأمارة:** وهي التي تميل إلى الطبيعة البدنية، وتأمر بالشهوات واللذات الحسية واتباع الهوى، وهي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة.

٢) **النفس اللوامة:** وهي التي تنورت بنور القلب عن سِنَة الغفلة، وكلما صدرت عنها سيئة بحكم جبلتها أخذت في اللوم والتعنيف، وحالت دون التمادي في العصيان، والتي تلوم صاحبها أيضًا على عدم الاستكثار من الخير.

٣) **النفس المطمئنة:** وهي التي أنارت بنور القلب حتى انخلعت من صفاتها الذميمة وتخلّقت بالأخلاق الحميدة، وهي التي ترى الحوادث الحياتية -خيرها وشرها- ابتلاء ومحنة، وهي التي لا تعرف أمراض الشبهة والشك والشهوة والبغي، وهي التي تؤدي إلى الحياة الطيبة في الدنيا، والفوز والنعيم المقيم في الآخرة[١].

أقسام القلوب:

١) **القلب السليم:** قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٩].

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله، في خوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق،

---

(١) نضرة النعيم (١/ع أ).

وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده..

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادةً ومحبةً وتوكلًا وإنابةً وإخباتًا وخشيةً ورجاءً، وخلص عمله لله»(١)

٢) **القلب المريض:** قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠].

والمرض عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائدهم، وذلك إما أن يكون شكًا ونفاقًا، وإما جحدًا وتكذيبًا.

٣) **القلب الميت:** قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٧].

والقلب الميت هو الذي لا حياة فيه، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره، وبما يحبه ويرضاه؛ بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضي ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله: حبًا وخوفًا ورجاءً ورضًا وسخطًا وتعظيمًا وذلًا.

- القلب ملك الأعضاء، والأعضاء جنوده، وهم جنود طائعون له، لا يخالفونه في شيء أبدًا، فإن كان الملك صالحًا كانت الجنود صالحة، وإن كان فاسدًا كانت جنوده فاسدة.
- للقلب أعمال وأقوال، فأعماله هي النية والإخلاص والإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأقواله هي العقائد والتصديق واليقين.

درجات الناس في أعمال القلوب:

١) **الظالم لنفسه:** وهو العاصي بترك مأمور أو فعل محظور، مع بقاء التوحيد والإيمان.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/١٤).

٢) **المقتصد:** وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات.

٣) **السابق بالخيرات:** وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، والتارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

أمراض القلوب:

للقلب والنفس أمراض تعتريها بين الحين والآخر، وهي تنقسم إلى قسمين:

١ - أمراض بسبب الشبهات، ومنها:

أ- الشرك بالله تعالى، وعلاجه يكون بالآتي:

- التأكيد على التوحيد الخالص وإفراد الله بالعبادة والتحذير من الشرك وكل ما يؤدي إليه.
- سد الذرائع لكل ما قد يؤدي إلى الشرك، كاتخاذ التصاوير والتماثيل، واتخاذ المساجد على القبور، والغلو في محبة الصالحين، ونحو ذلك.

ب - النفاق، وعلاجه يكون بالآتي:

- تربية النفوس على الإيمان الراسخ والعقيدة الجازمة، والتوجه إلى الله تعالى بصدق وإخلاص، وتزكية النفوس حتى تسمو وتتطهر من شرورها، وتذوق حلاوة الإيمان فلا يضرها من خالفها، ولا تهزها رياح الشبهات والشهوات مهما عصفت بها.
- سد الذرائع الموصلة إلى النفاق من الكذب والخيانة وإخلاف الوعد والمداهنة ونحو ذلك.
- التحذير من النفاق وعقوبته الشديدة في الآخرة.

ج - البدعة، وعلاجها يكون بالآتي:

- الاعتصام بالكتاب والسنة.

- أخذ العلم النافع من أهله.

٢ - أمراض بسبب الشهوات، ومنها:

أ) حب النفس وحب الحياة، وينتج عن ذلك: الرياء والعجب والكبر، وحب المدح من الناس والأنانية والشح، والحسد وكثرة الغضب والذل والمداهنة.

ب) حب المال، وينتج عن ذلك: الصد عن طاعة الله، والوقوع في المعاصي، والشح والطمع، والخوف والهلع.

ج) شهوة البطن.

د) شهوة الفرج، وينتج عن ذلك: قسوة القلب وضعف الإيمان، وكثرة الوقوع في المعاصي، وذهاب الحياء، وعلاج ذلك: غض البصر، وستر العورة، ومنع الاختلاط، والأمر بالحجاب.

علاج طغيان الشهوات:

- مجاهدة النفس ومحاسبتها.
- الإكثار من الأعمال الصالحة.
- تنفيذ العقوبات التأديبية.
- إذا كانت النفس والقلب يمرضان، فلا بد من علاجهما بتزكيتهما بفعل المأمورات وترك المحظورات.

معوقات زكاة النفس:

١- الشيطان الرجيم، وتمكنه من إفساد النفوس لأسباب:

أ) استغلاله لأهواء النفس وأمراض القلب.

ب) التزيين والخداع.

ج) التدرج في الإغواء.

العلاج من مداخل الشيطان:

- الاستعاذة بالله منه.
- ذكر الله تعالى.

٢- تأثير الأسرة والمجتمع، والتخلص من تأثيرهم يكون بالآتي:

- تقوية الإيمان بالله تعالى.
- بناء الأسرة على أساس التقوى.
- صحبة الصالحين وتجنب الأشرار.
- إصلاح المجتمع.
- الهجرة والعزلة[(١)].

أمور تحصل بها زكاة النفس:

١) الإيمان والتوحيد.

٢) المتابعة لرسول الله ﷺ.

٣) القيام بالفرائض والواجبات والسنن.

٤) الابتعاد عن فعل المحرمات والمكروهات.

٥) تربية النفس تربية صحيحة على الكتاب والسنة.



(١) بتصرف من كتاب أمراض النفس للدكتور أنس أحمد كرزون.

معنى النفس

وعند بحثنا أيضًا عن معنى النفس نجد أن لها معانيَ متعددة:

أهمها – وهو الذي يعنينا – معنيان:

المعنى الأول: (النفس الكبرى): وهي النفس التي نعني بها الذات الإنسانية كاملة، المؤلفة من جسد وروح، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩].

يقال: جاء هو نفسه أو بنفسه، أي ذاته. والنفوس البشرية كلها قد خلقت من نفس واحدة، هي نفس الإنسان الأول [آدم] عليه السلام، ثم اشتق الخالق من هذه النفس الواحدة نفس زوجها، ثم بثَّ منهما عن طريق التناسل كل السلالات البشرية المتكاثرة إلى أن تقوم الساعة، دلَّ على هذه الحقيقة قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

- وفي القرآن الكريم يقول الله عز وجل ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ يقول القرطبي في تفسيره: في النفس قولان أحدهما آدم، والثاني كل نفس منفوسة.
- وأكثر آيات القرآن الكريم التي تذكر النفس تعني هذه الذات الإنسانية منها قوله سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقوله عز وجل: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴾ [الإسراء: ٣٣].

المعنى الثاني: (النفس الصغرى) وهي: «شيء في داخل كيان الإنسان، جامع لكثير من الصفات والخصائص الإنسانية التي لها آثار ظاهرة في السلوك الإنساني»[١].

ويقول الإمام الغزالي عن هذا المعنى: «يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، فهي الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون لا بد من مجاهدة النفس وكسرها»[٢].

ويشير إلى هذا المعنى العديد من آيات الله عز وجل منه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦].

وقوله سبحانه حكاية عن قصة يوسف: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقوله عز وجل: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ فيما رواه النواس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه قال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[٣]

وعن وابصة بن معبد قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «**جئت تسأل عن البر**»؟

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ج١ ص٢٢٩.

(٢) انظر إحياء علوم الدين، ج٣ ص٤.

(٣) أخرجه مسلم.

قلت نعم فقال: «استفت قلبك، البر[١] ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم[٢] ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[٣]

والسؤال المطروح في هذا الموضوع:

أي المعنيين المقصود من زكاة النفس؟

والجواب: يمكن إطلاق زكاة النفس على كليهما، على النفس البشرية بصورة عامة، أو النفس التي في داخل الإنسان بصورة خاصة، فكلاهما يحتاج إلى تزكية، أي إلى نمو وارتقاء وزيادة وتطهير، وتهذيب وتربية وإصلاح وتصفية وتنقية.

* * *

وتثبيت المعلومات وتذكرها عند الحاجة، والاعتبار والاتعاظ والذكرى.

وعن هذا العقل تصدر النتائج الفكرية إلى الفؤاد والقلب والصدر، لتحريك العواطف، وتنبيه الإرادة صاحبة السلطة في توجيه السلوك.

ثانيًا: العقل الإرادي:

ويكون في دائرة القلب، ومهمته عقل النفس وحبسها عن أن تنطلق مع الهوى إلى ما فيه شر أو ضرر أو أذى، عاجل أو آجل، فحبس النفس من معصية الله من العقل، وضبط النفس بقوة الإرادة من العقل، والصبر من العقل، والحكمة في تصريف الأمور من العقل.

قال ابن عباس: فلا يسمى عاقلًا إلا من عرف الخير فطلبه والشر فتركه.

وقيل لابن عباس: بم نلت العلم؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول.

---

(١) البر: جميع فضائل الأعمال والأخلاق.

(٢) الإثم: جميع رذائل الأعمال والأخلاق.

(٣) أخرجه أحمد والدارمي بإسناد حسن.

فالعقل على هذا المعنى، ينطبق على الإرادة الحازمة القوية القادرة على ضبط النفس، المستندة إلى نتائج العقل العلمي الواعي وما انتهى إليه من حقائق، فهمها ووعاها وعقلها، وقدّم بها نصحه للعقل الإرادي.

فالعقل الإرادي لا يكون عقلًا حقًا، ما لم يستند إلى نتائج العقل العلمي، أما العقل العلمي فقد لا يقترن بالعقل الإرادي، إذ قد يتوصل الإنسان إلى معرفة علمية حقة ويعقلها، إلا أنه يكون عاجزًا عن ضبط نفسه، وحبسها عن الانطلاق مع أهوائها وشهواتها التي تدفع به إلى مهالكه، وتقذف به إلى سوء المصير.

ولذلك وصف الله عز وجل الكافرين بأنهم لا يعقلون مع أن لهم ذكاء علميًا وفهمًا للحقائق.

- وقد وردت نصوص قرآنية كثيرة تدل على النوعين، ومن الآيات التي تدل على العقل العلمي قوله تعالى:﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فقوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ يدل على أن هذه الأمثال إنما يعقلها عقلًا علميًا، أي يفهم دلالاتها المرادة فهمًا صحيحًا.

كما وردت نصوص قرآنية أخرى تدل على العقل الإرادي ومنها قوله تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

فجعل الله العقل من خصائص القلب لأن المراد من العقل الإرادة العالمة القادرة على كبح جماح الأهواء والشهوات، وعقلها وحجزها في دائرة الحق والخير.

إذن فالعقل عقلان:

عقل في الرأس يعقل ويفكر، وعقل في القلب يتدبر ويعمل.



خصائص النفس وصفاتها

- لا بد عن البحث في موضوع زكاة النفس من معرفة خصائص النفس وصفاتها، وذلك للتعرف على جميع أحوال النفس، وما يتعلق بها ليسهل علينا إيجاد الطرق المختلفة التي تساعد على تزكيتها.
- ولما كانت النفوس البشرية كلها قد خلقت من نفس واحدة، فهي تحمل خصائص واحدة وصفات مشتركة.

أولاً: خصائص النفس

للنفس خصائص كثيرة تحدّث عنها القرآن الكريم ومن أهمها:

١) أنها تملك فطرة إدراك الخير والشر، ولديها الدوافع لعقل كل منهما، فهي تهتدي أو تضل، وتتزكى أو تتدنس.

وفي هذا الموضوع قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧- ٨]

٢) أنها تملك الإرادة الحرة، فهي عاملة كاسبة، تعمل وتكسب أفعال الخير وأفعال الشر عن وعي كامل فيها.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩- ١٠].

فهي التي تختار طريق هدايتها، أو طريق ضلالها، وهي في ذلك كله غير مجبرة. نفهم هذا من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

أي لو شئنا أن نجعل النفوس من الجن والإنس مجبرة غير مميزة، لآتينا كل نفس

هداها، ولكن المشيئة قررت التمييز، ويلزم من التخيير أن تختار بعض النفوس طريق هداها، وتختار الأخرى طريق ضلالها، وعندئذ تقتضي الحكمة، وذلك أن من صفات الله عز وجل علمه ما تكسبه كل نفس. قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٣٣]

٣) أنها ذات إدراك ووعي كامل للخير والشر، وعلى معرفة تامة بطريق الفجور، وطريق التقوى، وهي على بصيرة بما تعمل، قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٤- ١٥].

٤) أنها مكلّفة مسؤولة عما يصدر عنها، وتكليفها ضمن حدود الاستطاعة، وأن تكليفها يرتفع متى فقدت الاستطاعة. ودل على هذه الحقيقة عدة نصوص قرآنية منها ما يلي: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٥) أنها رهينة يوم القيامة بما كسبت حتى تحاسب، ويقرر مصيرها إلا أصحاب اليمين، فهم في جنات يتساءلون عن المجرمين يقولون لهم: ما سلكم في سقر؟

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ [المدثر: ٣٨- ٤٢].

وطبيعي أن تجد كل نفس يوم القيامة ما عملت من خير أو شر محضرًا مسجلًا، لأن ذلك هو المستند لمحاسبتها.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

والنفس الظالمة حين تجد هول عقابها تتمنى لو أنها تملك ما تفتدي به لافتدت به ولو كان ما في الأرض جميعاً قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

[يونس: ٥٤]

كذلك فإنها تتحسر على ما فرطت في جنب الله.

قال تعالى: ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾

[الزمر: ٥٦]

٦) أنها مجازاة عما يصدر عنها فالتكليف يستتبع المسؤولية، ويستتبع الجزاء، وقد أثبت القرآن ذلك للنفس الإنسانية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ [طه: ١٥].

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [إبراهيم: ٥١].

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧]

ولما كانت مسؤولية كل نفس، مسؤولية شخصية، لزم ألا تجزى نفس عن نفس

شيئًا، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

٧) أنها تعلم يوم القيامة ما قدمت من عمل وما أخرت.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الإنفطار: ٤ – ٥].

وقال سبحانه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير: ١٤].

أي ما أحضرت من عمل عملته في مدة امتحانها، وذلك يوم القيامة.

٨) أنها قادرة على المحاسبة الذاتية لنفسها يوم القيامة، لأنها بصيرة بما عملت، عالمة لما كسبت من خير أو شر.

قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤].

٩) أنها تجهل ما تكسب غدًا، والأرض التي قدر لها أن تموت فيها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

ومما تجهل كل نفس أيضًا، ما أخفى الله للمؤمنين المتقين من قرة أعين في الجنة.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

[السجدة: ١٧]



النفس البشرية وأنواعها

إن النفس البشرية واحدة كما يقول المفسرون والفقهاء إلا أن كثيرًا من أهل التصوف يقولون: إن للعبد ثلاث أنفس، والحقيقة أنه لا نزاع بين الفريقين، فإنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها.[1]

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]

وقال تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]

إذًا فالنفس واحدة، ولكن لها صفات متعددة فتسمى باعتبار كل صفة كالتالي.[2]

أولاً: النفس المطمئنة:

وهي تلك النفس المطمئنة إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه، فيستغني بمحبته عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ما سواه. ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بذكر الله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨][3]

لذا فإن طمأنينة القلب بسكونه واستقراره، وبزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه، والملل من هذه الحياة وما يترتب على ذلك من أمور.

والطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة: أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته

---

(١) تزكية النفس.

(٢) الروح لابن القيم.

(٣) ابن تيمية (مجموع فتاويه) المجلد ٩.

ونعوت كماله، وهي هنا نوعان:

أ) طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها.

ب) طمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١].

فمثلًا، الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به: تقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها، ولا قدرة له على دفعها، فيسلم لها، ويرضى بها، ولا يسخط، ولا يشكو، ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما آتاه؛ لأن المصيبة فيها مقدرة قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير. ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] .

أي أن يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها، كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة، فهذه طمأنينة الإيمان.

وأما طمأنينة الإحسان فهي الطمأنينة إلى أمره امتثالًا وإخلاصًا ونصحًا، أي: أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها، ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة هي في الظفر بالتوبة وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين وباشر قلبه آثارهما. فالتوبة طمأنينة تقابل ما في المعصية من انزعاج وقلق واضطراب. فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة النصوح وهي: «أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن»[1] ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن

---

(١) دليل الفالحين. هذا قول الكلبي، وأما عمر بن الخطاب وأبي بن كعب رضي الله عنهما: التوبة النصوح «أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه» وقال الحسن البصري: «هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى عازمًا على ألا يعود إليه».

العجز إلى الكيس، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات، ومن التيه إلى التواضع، ومن الفتور إلى العمل.

وبذلك فقد باشرت روح الطمأنينة، وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة فهي أول مفاتيح الخير.

فالغافل هو بمنزلة النائم بل أسوأ حالًا منه، والعاقل يعلم وعد الله ووعيده، ولا يحجبه الإدراك ويقعده عن ذلك سنة القلب، وهي الغفلة التي رقد فيها وطال، فبيقظته يصحو النائم، وبزجره تنكشف عن العاقل الغفلة؛ استجابة فيها لواعظ الله في قلبه. فبنور اليقظة يرى أنه لو عمل أعمال الجن والإنس من أعمال البر لاحتقرها بالنسبة إلى جنب عظمة الخالق، وما يستحقه بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

وكذلك بنور اليقظة يرى عيوب نفسه، وما تقدم له من أعمال سيئة، وما كان فيه من غفلة، ويحاسب نفسه، ويراقبها، فيستقبل بقية عمره مستدركًا، قال تعالى في حق الغافل: ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٦] فلا يرى لنفسه حسنة، ولا يراها أهلًا للخير، وبذلك يرى أن من حق المنعم عليه أن يسير إليه ناكس الرأس بين مشاهدته نعمه، ومطالعة جناياته وعيوب نفسه وآفات عمله. وذلك يوجب له أمرين عظيمين:

١) استكثار ما منَّ به الله عليه.

٢) استقلال الطاعة التي تصدر منه كائنة ما كانت.

وحيث أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالًا لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقده كماله الذي جعل له، فمثلًا: كمال العين بالإبصار، وكمال الأُذن بالسمع، وكمال اللسان بالنطق ... إلخ. فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فواته ذلك.

وجعل كمال القلب ونعيمه وابتهاجه وسروره ولذته في معرفته سبحانه وإرادته

ومحبته والإنابة إليه والشوق إليه، فإذا عدم القلب كان أشد عذابًا واضطرابًا من العين التي فقدت الإبصار، وقس على ذلك اللسان والأُذن وباقي الأعضاء ...إلخ.

ولا سبيل إلى الطمأنينة ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغايته المطلوبة. أي: محبًا ومريدًا للخير والحسنات، مبغضًا وكارهًا للشر والسيئات، وأصبح له خلقًا وعادة وملكة، أما اليقظة فهي أول منازل النفس المطمئنة «المصدَّقة» بما وعد الله سبحانه وتعالى وأخبر به رسول الله ﷺ.

ثانيًا: النفس اللَّوامة[١]:

هي تلك النفس التي لا تثبت على حال واحدة، فهي كثيرة التردد والتقلب والتلون، وهي من أعظم آيات الله. وهي مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون في الساعة الواحدة، فما بالك كيف تكون في اليوم والأسبوع والشهر والعام والعمر كله، نجد ألوانًا كثيرة وحالات متعددة ومتغايرة، فنجدها تذكر وتغفل، وتُقبل وتُعرض، وتلطف وتكشف، وتثيب وتجفو، وتحب وتبغض، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتطيع وتعصى وتتقي وتفجر، إلى أضعافِ أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها.

لذلك يقول الحسن البصري رحمه الله: «هي نفس المؤمن، إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائمًا على الفعل: لِمَ فعلت هذا، وما أَردت بهذا؟ ونحو ذلك» ولكن غيره يقول: هي نفس المؤمن توقعه في الذنوب والمعاصي ثم تلومه، وهذا اللوم من الإيمان، بخلاف الشقي، فإن نفسه لا تلومه على ذنب، بل يلومها وتلومه على فواته دون فعله.

وهناك آخرون يقولون: إن هذا اللوم للسعيد والشقي أيضًا. فالأول يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والثاني لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها.

---

(١) الروح لابن القيم.

وطائفة أخرى فسرت ذلك على أن هذا اللوم يكون يوم القيامة، فإن كان مسيئًا لام نفسه على إساءته، محسنًا لام نفسه على التقصير في طاعة الله. وحقيقة هذه الأقوال المذكورة أعلاه كلها اجتهادات المفسرين وهي كلها حق ولا تتنافى فيما بينها، فإن النفس موصوفة بهذا كله، وباعتبارها سميت اللوامة وهي نوعان:

١) **اللوامة الملومة:** وهي تلك النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته.

٢) **لوامة غير ملومة:** وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله، مع بذل جهده (فهذه غير ملومة) وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله، واحتملت لوم اللوام في مرضاته، فلا تأخذها في الله لوم لائم.

أما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله لوم اللوام فهي تلك التي يلومها الله تبارك وتعالى.

ثالثًا: النفس الأمارة[1]:

وهي تلك التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي. وهي مذمومة [2] نظرًا؛ لأنها تأمر بكل سوء، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها. قال تعالى في كتابه حاكيًا عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣]

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]

ومن هدي المصطفى نجد أنه يعلم أصحابه خطبة الحاجة: «الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له» إذًا فالشر كامن في النفس وهو يوجب سيئات

(١) فتاوى ابن تيمية، مجلد ٩.

(٢) الروح لابن القيم.

الأعمال إلا من أعانه الله ووفقه.

والخالق سبحانه امتحن الإنسان بالنفس اللوامة والنفس الأمارة، وأكرمه بالنفس المطمئنة، فالنفس هي نفس واحدة تكون أمارة، ثم لوامة، ثم مطمئنة، وهي غاية كمالها وصلاحها، فأيد المطمئنة بجنود عديدة، فجعل الملك قرينها وصاحبها الذي يليها، ويسددها، ويقذف فيها الحق، ويرغبها فيه، ويريها حسن صورته، ويزجرها على الباطل، ويزهدها فيه، ويريها قبح صورته، وأمدها بما علمها من القرآن والأذكار وأعمال البر، وجعل وفود الخيرات وأمداد التوفيق تنساب إليها وتصل إليها من كل ناحية، وكلما تلقتها بالقبول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته في ذلك كله؛ ازداد مدها فتقوى على محاربة الأمارة.

وأما النفس الأمّارة، فإن الشيطان قرينها وصاحبها الذي يليها، فهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها الباطل، ويأمرها بالسوء ويزينه لها، ويطيل الأمل، ويريها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها، ويمدها بأنواع الأمداد الباطلة من الأماني الكاذبة والشهوات المهلكة، ويستعين عليها بهواها وإرادتها، فمنه يدخل عليها كل مكروه، فما استعان على النفوس بشيء هو أبلغ من هواها وإرادتها. وقد علم ذلك إخوانه شياطين الإنس فلا يستعينون على الصور الممنوعة منهم بشيء أبلغ من هواهم وإرادتهم، فإذا فتحت لهم النفس باب الهوى دخلوا منه فجاسوا خلال الديار فعاثوا وأفسدوا وفتكوا وَسَبَوْا. ومن مداخل [١] الشيطان حيث يأمر بالسوء ونسيان الاستحواذ، والنزعات، وتخويف بالفقر، والاستهواء، والإيحاء بالمجاملة، واليأس، والاستفزاز، وتفكك الأسرة. والنفس الأمارة[٢] هي عكس النفس المطمئنة وفي تضاد، فكلما جاءت النفس المطمئنة بالخير، فإن النفس الأمارة تضاهيها بالشر بما يقابله، فإذا جاءت بالتوحيد

---

(١) البيان في مدخل الشيطان.

(٢) تزكية النفوس.

والإيمان جاءت بالشرك والشك والنفاق، وتريه حقيقة الجهاد في صورة تقتيل النفس، وتنكح الزوجة، ويصير الأولاد يتامى، ويقسم المال من بعده.

وتريه هذه النفس حقيقة زكاة المال والصدقة في صورة مفارقة المال ونقص وخلو اليد منه واحتياجه إلى الناس ومساواته للفقير، وهكذا مع كل أعمال الخير والبر.

ثانيًا: صفات النفس[١]:

للنفس صفات كثيرة أظهرها القرآن الكريم في طيات آياته، وهي كثيرة جدًا نذكر أهمها:

١- الهوى:

والهوى شعور يجعل النفس تميل إلى ما تحب من مطالب وحاجات، أو متع ولذات وشهوات، أو عواطف وانفعالات، أو معاصي ومحرمات.

وأكثر ما تهواه النفس يكون شرًا لها، أو أذًى أو ضرًا قال المحاسبي:

«الهوى هو تعلق النفس بالشهوات، وميلها إلى الراحات، فعلى قدر الشهوات يتمكن منها الضعف فيستولي عليها الهوى»[٢]

٢- الشهوة:

والشهوة هي رغبة عارمة وميل قوي نحو ما تستمتع به النفس، أو تتلذذه من لهو ومرح ولغو وميل جنسي، وغير ذلك من الشهوات المختلفة.

والشهوات من نتائج الهوى، وهي أخفى، والهوى أصل وهو أعم، فالهوى يكون في الآراء والمعتقدات والشهوات، والشهوة مختصة بنيل المستلذات.

---

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني الجزء الأول صفحة: ٢٣٦ وما بعدها.

(٢) الوصايا: ص٢٣١.

٣- الصبر أو الضجر:

تتصف النفس بالصبر أو ضده الضجر.

قال تعالى مشيرًا إلى ذلك: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف: ٢٨].

٤- الجود أو البخل:

وتتصف النفس بالجود والكرم، أو ضده البخل والشح، وهو الغالب عليها، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

الكبر أو التواضع:

كما تتصف النفس أيضًا بالكبر، أو بضده التواضع، قال الله تعالى واصفًا المشركين: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١].

وللنفس أيضًا صفات أخرى، منها أنها تشعر بالمشقات أو بالخوف أو عدمه، وبالخشية، ومن صفاتها أنها تحسد وتحقد، وتأمر بالسوء والفحشاء والمنكر، وتشك وتظن وتستيقن، ويمسها الحرج والضيق، أو تنشرح وتفرح، أو تحزن وتسر، أو تتحسر وتتأثر بالقول البليغ أو لا تتأثر، وكل هذه الصفات ذكرت في القرآن الكريم في آيات متفرقة، وسوف نتحدث عن بعضها في فصل قادم حين الحديث عن معالجة أمراض النفس.



أهمية زكاة النفس

خلق الله الإنسان، ويسر له سبل الإيمان، وجعله مختارًا وكلفه بحمل الأمانة، وسخر له ما في السموات والأرض، وجعله خليفته في أرضه، وأرسل له الأنبياء والرسل ليدلوه على طريق سعادته في الدنيا والآخرة، وجعله مسؤولًا ومحاسبًا عما يصدر عنه منذ سن البلوغ –لأنه في هذه السن يستطيع التمييز بين الخير والشر –وبين له نتيجة اختياره فقال سبحانه: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧– ٨].

– وقد خلق الله تعالى النفوس البشرية، وسواها على أكمل خلق وأجمله، وكرمها على سائر المخلوقات، وبين لها طريق الخير وطريق الشر.

قال تعالى: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾ [البلد: ١٠].

وترك لها حرية الاختيار لأحد الطريقين قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]

– وأظهر سبحانه لها أن الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، لمن يختار طريق الإيمان الحقيقي الذي لا يكون إلا بزكاة النفس، كما بين أن الذي لا يزكي

نفسه سوف يتبع طريق الشر الذي سيؤدي به إلى الخيبة والخسران، والشفاء في الدنيا والآخرة قال تعالى مبيناً هذه المعاني: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧– ١٠].

وطلب الفلاح والنجاح والسعادة، والابتعاد عن الخيبة والخسران والشقاء، مقصد كل إنسان عاقل يحب الخير لنفسه ويكره لها الشر، وهذا لا يكون إلا بالتزكية.

- إذن فطريق التزكية طريق النجاح والسعادة في الدنيا والآخرة، والله عز وجل يقول: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤].

وتظهر أهمية التزكية في أمور كثيرة جدًا نذكر منها:

أولًا: تحقق التزكية المعرفة الحقيقية لله، والإيمان الكامل به، والحب الخالص له، وهذا يوصل إلى غاية الإنسان في هذه الحياة التي خلق لأجلها قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ثانيًا: تحقق التزكيةُ العبوديةَ الخالصةَ لله، والطاعة التامة له، وهذا يوصل إلى تحقيق ما أمر به عباده. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

ثالثًا: تجعل التزكيةُ المسلم مسلمًا حقًا كما يحب الله تعالى له، ويرضاه خالصًا من الشوائب، بعيدًا عن النفاق، متخلقًا بأخلاق القرآن الكريم والنبي العظيم ﷺ، سالكًا طريق الاستقامة واليقين، مبتعدًا عن طريق الشيطان الرجيم،

منتهجًا نهج الصحابة والتابعين، والعلماء الصالحين، والمؤمنين الفائزين.

رابعًا: التزكية هي إحدى المهام الأربع التي أوكلها الله عز وجل لنبيه المصطفى ﷺ ليؤديها إلى الناس ويدعوهم إليها: ﴿ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ فأداها النبي ﷺ خير أداء، ثم أمر الدعاة من العلماء من بعده أن يحملوها صادقين ويؤدوها طائعين.

خامسًا: توصل التزكيةُ الإنسان إلى مقامات عالية كحب الله له ورضاه عنه، قال تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾.

وقال سبحانه: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾.

سادسًا: تحقق التزكيةُ للإنسان السعادة والنجاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ

﴿عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧- ٤١].

سابعًا: تربي التزكية في الإنسان مراقبة الله وخشيته، والخوف منه، والعمل بأوامره، والبعد عن نواهيه، فيصبح هذا الإنسان وكأنه ملك يمشي على الأرض.

ثامنًا: تدفع التزكية المسلم إلى الاستقامة مع الله ومع عباده وتربي فيه الأخلاق الفاضلة، والسلوك القيم، والمعاملة الحسنة، والآداب السامية.

تاسعًا: تجعل التزكية المسلم مسلمًا حقًا، متكامل الإيمان، متكامل الأخلاق، متكامل الصفات، نموذجًا حيًا متحركًا وفقَ تعاليم القرآن الكريم والسنة المطهرة كما كان يوصف النبي ﷺ: «كان خلقه القرآن»

فالتزكية تملك القدرة العجيبة في التبديل والتغيير من واقع إلى آخر يغايره، إلى واقع مثالي كامل رباني نبوي إسلامي.

عاشرًا: تربي التزكية في المسلم الإرادة القوية التي تجعله يسرع في تطبيق جميع أوامر الله، والابتعاد عن نواهيه منشرح الصدر، واثق الخطا، مؤمنًا صادقًا، تقيًا نقيًا.

أما المسلم الذي لا يزكي نفسه فإن إرادته ضعيفة فلربما تلا القرآن، وعلم أحكامه، وفهم حكمته، ولكنه لا يطبق شيئًا من ذلك كله.

أو لربما كان عمله وسلوكه مغايرين لما تلا وعلم وفهم، فالتزكية إذن هي المجال العملي، الذي نرى من خلالها المسلم الحق المطبق لكل أحكام الإسلام على أكمل وجه، وفي جميع المواقف والمناسبات، وخير مثال وأوضحه على كل ما ذكرناه عن أهمية التزكية، مثال حقيقي واقعي طبقت فيه التزكية خير تطبيق، فكانت النتائج مشرفة، وعلى أكمل وجه.

- هذا المثال الحقيقي الواقعي وجد في زمن النبي ﷺ، فقد كان النبي ﷺ -وهو المُزكّى من الله عز وجل- مزكيًا للصحابة الكرام، فكان الصحابة خير مثال عن التزكية، فكانت التزكية تجربة واقعية، وكانت عملية تغيير وتبديل، وعملية تربية

وتقويم، وعملية نمو وارتقاء وعملية زيادة ونماء، وعملية تطهير وتهذيب وعملية تصفية وتنقية.

فنقلهم النبي ﷺ بالتزكية:

من الكفر إلى الإيمان. ومن الضلالة إلى الهدى.

ومن الظلمات إلى النور. ومن الجهل إلى العلم.

ومن الضعف إلى القوة. ومن الفقر إلى الغنى.

ومن الظلم إلى العدل. ومن الغضب إلى الحلم.

ومن البغض إلى المحبة. ومن الفرقة إلى الوحدة.

ومن الشقاء إلى السعادة. ومن قساوة القلوب إلى لينها.

ومن الأنانية إلى التعاون. ومن حب الذات إلى الإيثار.

ومن التكبر إلى التواضع. ومن الأخلاق الفاسدة إلى الأخلاق السامية.

ومن لا شيء إلى كل شيء. حتى ملكوا الدنيا بما فيها.

وحتى ملكوا الملوك والقلوب. فأصبحوا كما وصفهم الله عز وجل.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

إذن الصحابة الكرام هم المثال الحي على نتائج هذه التزكية، ولو درسنا شخصية واحدة من هذه الأمة كنموذج عملي، لنتعرف على مدى نتائج تأثير تزكية النبي ﷺ في نفوس أصحابه، ومدى تلك النقلة بين ما كانوا وما أصبحوا، ومدى ذلك التغيير والتبديل في شخصيتهم، ومدى تلك التربية والتنقية والتصفية، ومدى التطهير والنمو والزيادة، لتبين لنا حقيقة التزكية وأهميتها وضرورتها ومدى فعاليتها. وكل صحابي من صحابته ﷺ يمكن أن يكون صاحب هذه الشخصية، لأنهم جميعًا تأثروا بتزكية النبي ﷺ فتغيروا وتبدلوا وأصبحوا حكماء علماء، ونماذج حية من الإسلام المتحرك، والمثال

الحي عن القرآن الكريم والسنة المطهرة.

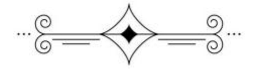
- ولعل أقرب مثال إلى أذهاننا جميعًا الشخصية المحبوبة المعروفة المعلومة، شخصية سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، فقد عاش خمسًا وستين سنة تقريبًا. نصفها في ظلام الخمول، كان فيها نكرة مجهولًا، لا اسم له ولا مجد، يرعى أغنام خالاته على قبضة من تمر أو زبيب. ونصفها في نور العظمة، كان فيها علمًا من الأعلام، وكان من أعظم العظماء.

وكانت نقطة التحول في اللحظة التي قال فيها:

أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. هنالك ولد عمر حقًا، وبدأت حياته في التاريخ عندما دخل مدرسة التزكية الإيمانية، التي يشرف عليها المُزكى من الله والمُزكي لعباد الله سيدنا محمد ﷺ، عمر هذا الذي كان في الجاهلية سريع الغضب، شديد الكفر، ظلومًا جهولًا، صفع أخته فأدمى وجهها لأنها دخلت في الإسلام.

إذا به بعد الإسلام وبعد أن دخل مدرسة التزكية، يبكي ويعاتب نفسه لأقل هفوة تظهر منه، وإذا به يغدو رقيقًا سمحًا يحاسب نفسه على كل صغيرة وكبيرة.

أيُّ تغير هذا؟! إنه الإسلام. إنها تزكية الإسلام. إنها مدرسة التزكية التي تصقل الطباع، وتبدل السلوك، وتنمي الإحساس، وتقوي الإيمان، وترفع الشأن وتعز الإنسان، وتغير الزمان، فما أحوجك إليها أيها الإنسان! وفي كل عصر وأوان.



مصادر التزكية

- الإسلام هو الدين الذي اختاره الله عز وجل لإسعاد عباده في الدنيا والآخرة، فهو النهج الفريد والطريق الوحيد، والمسلك السهل، والأسلوب الحكيم لتحقيق تلك السعادة.

كيف لا؟ وهو من عند الخالق سبحانه، ترى فيه الموضوعية والعدالة، والمثالية والمساواة، والنجاح والفلاح، والسعادة الأبدية.

- والموفَّقُ، من وفقه الله لاتباعه، والسير على نهجه وبرنامجه. وبما أن التزكية هي إحدى المواضيع التي طالب بها الإسلام، ودعا إليها، وجعل لها أهمية كبرى، في النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة؛ فإن مصادرها هي مصادر الإسلام (القرآن والسنة)

أولاً: القرآن الكريم:

يعتبر القرآن الكريم وهو كلام رب العالمين ومربيهم، هو المصدر الأول في منهج زكاة النفس، فجميع آيات القرآن الكريم بما فيها من آيات تشير إلى العبادات أو الأحكام أو الحدود، أو العقيدة أو الأخلاق والآداب والسلوك، أو الآيات التي تتحدث عن قصص الأنبياء والرسل أو القصص الأخرى، أو ما اختصت بالحديث عن الأقوام السابقة، أو الحديث عن النبي ﷺ وأصحابه الكرام، وسيرته الشريفة، أو غزواته، أو المؤمنين والمتقين والصالحين والمخلصين والمستقيمين، أو الحديث عن الكفار من قريش وغيرهم أو المنافقين، أو أصحاب الكتاب وغيرهم، وكذلك الآيات التي تتحدث عن المستقبل، أو الدنيا والإنسان والحياة والكون، أو الموت والبعث والنشور والحساب والجزاء والجنة والنار، وبكل الأساليب التي استعملها القرآن

الكريم من الحوار، أو ضرب الأمثال أو سرد القصص، أو ذكر المواعظ والعبر أو الترغيب والترهيب. كل هذه الآيات إنما تهدف إلى زكاة النفس لتعتبر وتتعظ وتتربى، وتأخذ الدروس وتتعرف على الأفضل والأصلح والأكمل والأحسن، فتتزكى وتتطهر من أدرانها وتتصف بصفات الكمال الإيماني لتنال الفوز والسعادة في الدارين.

إذن فإن القرآن الكريم -بجميع آياته- يدعو إلى زكاة النفس، ويبين الأسلوب الأصح في تحقيق تلك التزكية، وإن كل آية من آياته تظهر إحدى جوانب التزكية والطريق الذي يؤدي إليها.

لذلك لما سئلت السيدة عائشة عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن.

ثانيًا: السنة المطهرة:

السنة المطهرة والسيرة الرشيدة للنبي ﷺ، هي المصدر الثاني لمنهج زكاة النفس.

ولئن كان القرآن الكريم المصدر النظري التعليمي التلقيني، فإن السنة المطهرة والسيرة الرشيدة هي المصدر العملي التطبيقي الواقعي المثالي.

فجميع أحاديث النبي ﷺ وما كان من سيرته العطرة، وفي جميع المجالات والمواقف، كلها منهج عظيم في التزكية، يهدف إلى تهذيب النفس وتربيتها وصقلها ونقلها وتغييرها وتبديلها وتنقيتها وتصفيتها وتطهيرها، ضمن منهج رباني لما فيه رضاء الله عز وجل، ونيل السعادة في الدنيا والآخرة.

- هذا وسوف نستعرض بعض هذه الآيات والأحاديث، ونحن نتحدث عن منهج الإسلام في التزكية وأساليبه المتعددة.

ولا بد من أن نشير هنا إلى أهمية مصدر فرعي آخر، وهو مصدر عملي كان نموذجًا حيًا لهذه التزكية التي تأثرت بالقرآن والسنة، فكان خير مثال عن هذه التزكية، مثال عملي تحققت فيه هذه التزكية على أكمل صورة وأحسن وجه.

هذا النموذج هو نموذج الصحابة الكرام، ومن تأثر بهم واقتدى من التابعين

وتابعيهم، ومن بعدهم العلماء والدعاة والمربون والصالحون والمصلحون، على مر الأزمنة والعصور.

- هذا النموذج العملي، والمطبق لمنهج التزكية كما في القرآن والسنة، وما يظهر منه من أقوال وأفعال، وحكم وقصص، وأعمال ومواعظ، ودروس وإشارات وعبارات، وسلوك وأخلاق، ومعاملات وآداب، كل ذلك يمكن أن يكون مصدرًا فرعيًا في منهج زكاة النفس، وأساليبه وطرقه المتعددة والمتنوعة، إلى جانب المصدرين الأساسيين: القرآن والسنة.



ثوابت لا بد منها لنجاح منهج التزكية

أولاً: الأسرة المسلمة:

إن من أهم الثوابت التي لا بد منها لضمان نجاح منهج التزكية، هو الأسرة المسلمة المطبقة لأحكام الدين وأوامره، المبتعدة عن نواهيه ومحرماته، والتي تسعى لتربية أبنائها ضمن منهج الإسلام وتعاليمه. فهذه الأسرة تضع اللبنات الأولى في نجاح منهج التزكية، وذلك من خلال ما تقدمه من تربية صحيحة ضمن توجيهات الله عز وجل لها.

فهي عندما تسمع قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]

تسعى هذه الأسرة لهذه الوقاية بجميع أشكالها، وكما ورد في تفسير هذه الآية.

أورد الآلوسي في تفسيره لهذه الآية: روي أن عمر قال حين نزلت: يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلنا؟ قال عليه الصلاة والسلام: «تنهونهن عما نهاكم الله عنه وتأمرونهن بما أمركم الله به، فيكون ذلك وقاية بينهنَّ وبين النار»

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه، وجماعة عن علي -كرم الله تعالى وجهه- أنه قال في الآية: {علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم} إذن فهذه الآية تدعو إلى التزكية وتأمر الوالدين بحمل هذه المسؤولية كاملة.

ولقد أشار النبي ﷺ إلى أهمية الأسرة، في تحقيق التزكية في الأولاد منذ اللحظات الأولى لهم.

فقد روى أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قوله:

«ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء، هل يحسون فيها من جدعاء».

ثم تلا أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قول الله عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠][١]

كما أشار النبي ﷺ إلى مسؤولية التزكية، وتحمل الوالدين لهذه المسؤولية فقال النبي ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته»[٢]

وورد في حديث آخر: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه، أحفظ أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»[٣]

وورد في الحديث: «ما نحل والد ولدًا أفضل من أدب حسن»[٤]

وورد أيضًا: «لأن يؤدب الرجل ولده خيرٌ من أن يتصدق بصاع»[١]

- من كل ذلك نتبين أهمية الأسرة المسلمة في نجاح منهج زكاة النفس عند أبنائها، ولا يتحقق هذا النجاح ما لم يكن الوالدان قدوة صالحة لأولادهما، وبعبارة أخرى، ما لم يكن الوالدان مطبقين لمنهج التزكية تطبيقًا كاملًا، في جميع شؤون حياتهما، فالتزكية عند الأبناء لا تحتاج فقط إلى توجيه وتشجيع من الوالدين، بل تحتاج إلى قدوة حسنة

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه النسائي في سننه الكبرى.

(٤) أخرجه الترمذي.

(١)

منهما لهذه التزكية، لتنبع التزكية من أعماق الأولاد.

- فإذا ما قدر الله عز وجل للأولاد مثل هذه الأسرة، فإن نسبة النجاح في تحقيق منهج التزكية عند الأولاد تكون كبيرة.

- ولكن يجب أن نعلم أن من الفضل الإلهي، أن نجد أبناءً ولدوا في أسرة بعيدة عن التزكية وتطبيقاتها، قد منَّ اللهُ على الأولاد أو بعضهم بأن هيأ لهم وسائل أخرى تدفعهم نحو تزكية نفوسهم وحمايتها من التدنيس، وليس ذلك على الله بعزيز.

* * *

ثانيًا: المربون:

التزكية تربية، والتربية لا بد لها من مرب، ولا يمكن أن تتم التزكية في النفوس من دون مزكٍّ ومربٍّ، فإذا كانت الأسرة هي اللبنة الأولى في التزكية، فإن للمربين الدور الهام في متابعة المنهج، ونجاحه وتعليمه وإقراره واستقراره وثباته، ودوامه وإظهاره.

ولا يمكن أن نتصور تزكية من دون مزكٍّ لذلك فإن أول وأعظم وإمام المزكين في منهج الإسلام، هو نبينا العدنان ﷺ، الذي زكاه رب العالمين جل جلاله.

«أدبني ربي فأحسن تأديبي»

- ولقد كان رسول الله ﷺ المزكي الأول للمؤمنين، كلفه الله بهذه المهمة حين قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

[آل عمران: ١٦٤]

وبعد الأنبياء والرسل تسلَّم العلماء هذه المهمة، فقد روى أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا**

ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه، أخذ بحظ وافر»[١].

وأفضل ما في هذا العلم التزكية لأنها التطبيق العملي للعلم، وعلى مر العصور وفي شتى بقاع العالم، نسمع عن علماء ورثوا عن النبوة هذه المهمة، وتحققت في نفوسهم، وملكوا القدرة على تزكية النفوس، فإذا استمعت إليهم انشرح صدرك، وهدأت نفسك، وذرفت عيناك وخشع قلبك، فإذا بك تستغفر الله من ذنوبك، وتعقد العزم على ألّا تعود إليها، وإذا بإرادة إيمانية قوية تحملها في داخلك من وراء اجتماعك بهذا المربي المزكي، وإذا بك تخرج على غير ما دخلت به بإشراقة إيمانية ساطعة، وهمة فولاذية نحو تطبيق أوامر الله ورغباته.

وهذا ما كان يحدث مع الصحابة الكرام وهم بصحبة العدنان ﷺ، وهذا ما حدثنا به الصحابي الجليل حنظلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقد لقي أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: نافق حنظلة، فقال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وما شأن حنظلة؟ قال: نكون عند رسول الله ﷺ فيذكرنا الجنة والنار حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عنده عافسنا[١] الضيعات والزوجات فنسينا كثيرًا، فقال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إنا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة، ثم أتيا رسول الله ﷺ فقال حنظلة: يا رسول الله نافق حنظلة، فقال الرسول ﷺ:

«وما شأن حنظلة؟» فقال: نكون عندك يا رسول الله فتذكرنا الجنة والنار حتى كأنها رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات فنسينا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة في طُرقكم وعلى فُرشكم، ولكن ساعة وساعة»[٢]

- وعلم التزكية هذا هو علم لدني من الله عز وجل، ذكره الله في القرآن الكريم

---

(١) أخرجه ابن ماجه والترمذي.

(١) عافس الأمور: مارسها وزاولها.

(٢) أخرجه الترمذي.

وذكر أهمية البحث عن العالم به واتباعه بالصحبة والأدب، قال تعالى عن المعلم الذي اتخذه موسى عليه السلام: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾

[الكهف: ٦٥- ٦٩]

- إذن لا بد للتزكية من مزكٍّ، لذلك فطن السلف الصالح لأهمية هذا المربي المزكي، فكانوا يختارون لأولادهم المربين الصالحين، باذلين لهم كل حب وتقدير واحترام، مقدرين قيمة مهمتهم بالعطاء الكثير، والمال الوفير، لإدراكهم

مقدار تأثير المربي المزكي في تربية الأولاد التربية الإسلامية الصحيحة، وما لها من فائدة حفظ أولادهم من الضياع والهلكة والبعد عن الدين، ويقينهم أن تلك المهمة لا تقدر بثمن ولا مال.

- ومن هؤلاء الخليفة المسلم هارون الرشيد، الذي كان يهتم كثيرًا بتربية أولاده، فكان يختار لهم المربين الصالحين، ويقوم على خدمتهم بنفسه، وقد اختار لذلك جملة من المربين المزكين لأولاده، وكان أهمهم المربي القدير أبا معاوية الضرير.

«عن علي بن المديني يقول: سمعت أبا معاوية يقول: أكلت مع هارون الرشيد - أمير المؤمنين- طعامًا يومًا من الأيام، فصب على يديّ رجل لا أعرفه، فقال هارون الرشيد: يا أبا معاوية، تدري من يصب على يديك؟ قلت: لا. قال: أنا، قلت: أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، إجلالًا للعلم»[١]

- وإذا اتصف السلف الصالح بشدة الحرص على السعي وراء المربين لتزكية أولادهم، فنحن اليوم أشد حاجة منهم، وخاصة أمام ما يحاك من مؤامرات كثيرة لهدم أخلاق أبنائنا، وإبعادهم عن عقيدتهم، وأمام ما يهيأ من الوسائل الحديثة والكثيرة،

(١) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، المجلد الرابع عشر الصفحة (٨).

التي تجذب أبناءنا نحو أعدائنا ليسهل عليهم تحقيق مآربهم.

- لذلك كان من أهم الواجبات الملحة على الآباء والأمهات، في هذا الوقت الذي نعيشه، أن يتخيّروا لأولادهم المربين الواعين، والمشرفين المختصين بأمور التزكية والتربية، ليساعدوهم على تربية أبنائهم، وتزكيتهم التزكية الإسلامية الصحيحة.

وعلى ذلك فإن موضوع البحث عن المربي المزكي المرشد، من أهم الواجبات الضرورية والأساسية الملقاة على الوالدين.

ولو أمعنا النظر في التاريخ، لوجدنا أن وراء كل عظيم وكل مشهور وكل قائد وكل حكيم في ظل الإسلام، عالمًا مرشدًا قد ربّاه وزكّاه فأوصله إلى ما وصل إليه.

أولئك الصحابة الكرام كان النبي ﷺ هو المزكي لهم.

أولئك الخلفاء الراشدون كانوا نماذج لتزكية الرسول ﷺ.

أولئك التابعون كانوا تلامذة للصحابة الكرام.

أولئك العلماء والصالحون، كانوا تلامذة للمزكين الأوائل من التابعين ومن تبعهم بإحسان.

وعلى مر الأزمنة والعصور، وفي كل مكان ومصر نجد وراء العلماء والعظماء والمربين والمصلحين من أشرف عليهم ورباهم وزكاهم حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه.

وهكذا نجد الضرورة الماسة إلى وجود المربي المزكي، لنجاح منهج التزكية في تربية النفوس.

ثالثًا: الأصحاب:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]

لا يمكن أن يتحقق منهج التزكية بشكل متكامل، ما لم يجد المسلم نفسه مع جماعة يتعايش معها في ظل هذا المنهج، يتعلم منها ويمارس بينها ما تعلمه ويرى فيها

الأنموذج الحي لما يتعلمه، ينصحونه تارة ويبادلونه عواطفه وحياته تارة أخرى، ويتعلم منهم ما ينقصه، ويرى فيهم ما تعلمه، وللصحبة أثر كبير في التربية والتزكية، فقد لفت رسول الله ﷺ الأنظار إلى أثر الصاحب على صاحبه، ونبه إلى ضرورة البحث عن الصاحب المناسب، الذي يرشد إلى الدين الصحيح والأخلاق الفاضلة، ويساعد على تطبيق منهج التزكية.

فقد روى أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»(١)

كما بين الرسول ﷺ أثر الجليس في جليسه فقال: «إنما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك، إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة،

ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة»(١)

ولأهمية الأصحاب في نجاح منهج التزكية في نفوس الأولاد، وجب على الوالدين السعي الحثيث، في البحث عن الصديق الصالح لأولادهما والمناسب لهم، والذي يساعد على نجاح منهج التزكية في نفوس الأبناء.

قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه	فكـــل قـــرين بالمقـــارن يقتـــدي
فـــإن كـــان ذا شر فجانبـــه سرعـــةً	وإن كـــان ذا خـــير فقاربـــه تقتـــدي

- هذا ويجب على الوالدين إبعاد أولادهما عن رفاق السوء، بكل الوسائل لما له من أثر سيء وكبير، في انحراف الأبناء وبعدهم عن تزكية نفوسهم، وعن دينهم وأخلاقهم.

(١) أخرجه أبو داود والترمذي.

(١) متفق عليه.

وقد وصف الله عز وجل حالتهم يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾

[الفرقان: ٢٧- ٢٩]

وقد قال رسول الله ﷺ محذرًا من قرناء السوء: **«إياك وقرين السوء فإنك به تعرف»**(٢)

- ومع صعوبة مهمة انتقاء الأصحاب الخيرين في هذا الوقت، فإن ذلك يحتم على الآباء والأمهات البحث عن أصدقاء صالحين لأولادهم، وتشجيعهم على صحبتهم ومساعدتهم على الحفاظ عليها بشتى الوسائل، لأن اختيار الصديق الصالح والصاحب المؤمن، يعتبر من الأمور الهامة في تطبيق المنهج الإسلامي في زكاة النفس.

رابعًا: البعد عن كل ما يخالف المنهج:

- من عادات وتقاليد، وأصدقاء وزملاء، وسهرات ومجالس، وندوات ولقاءات، وحديث واجتماعات ومناقشات، وقيل وقال، ونظر وسماع، ومناظر ومشاهد وصور، وأفلام سينمائية أو تليفزيونية أو كمبيوتر أو غير ذلك من الوسائل الحديثة مما يضر بالدين، ويظهر المفاسد والمحرمات، وما يثير النفس والشهوات، ويضيع الوقت والصلوات.
- مثل هذه الأشياء وما شاكلها تؤثر تأثيرًا سلبيًا بليغًا في زكاة النفس، وتبعد النفس عن الانتفاع بهذا المنهج الرباني، لأن تلك الأشياء حجب سوداء تحجب النفس عن التزكية وتبعدها عن ربها.
- لذلك يجب أن يمتلك المسلم الإرادة القوية التي تعطيه القوة، والقدرة للابتعاد

(٢) أخرجه ابن عساكر عن أنس بن مالك في تهذيب تاريخ مدينة دمشق الجزء الرابع الصفحة ٢٩٢.

عن هذه الأمور والأشياء التي تبعده عن ربه وعن تزكية نفسه.

خامسًا: القناعة الشخصية:

التزكية تحتاج إلى تربية، والتربية بذل جهد للوصول إلى الغايات المنشودة، وتربية التزكية تحتاج إلى جهد شخصي من الإنسان نفسه، وذلك بالقناعة الشخصية من قبله، قناعته بضرورة سلوك هذا الطريق لما فيه من أهمية كبرى للنجاح في الدارين، وهو الطريق الوحيد لذلك، هذه القناعة تولد طاقة وإرادة فولاذية، تساعد على تطبيق هذا المنهج كاملًا، وتحمل مشاقه، والسير على أساليبه وطرقه، مهما كلف من بذل وجهد وتعب ونصب، فالغاية واضحة والطريق سليم، والنتيجة مضمونة بإذن الله تعالى.

سادسًا: أولًا وأخيرًا لا بد من التوفيق، التوفيق من الله عز وجل، الملهم عباده سلوك الطريق طريق الإسلام، طريق الخير، طريق النجاح، طريق الفلاح، طريق التزكية، فهو المزكي، وهو الدال على طريق التزكية، وهو الملهم له، وهو الميسر له، وهو المشوق إليه، وهو المجيب به، وهو المشجع عليه، وهو المبين له. ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١].

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

اللَّهم فألهمنا طريق الإسلام، طريق التزكية ووفقنا إليه بجودك وكرمك، وفضلك ومنك فلك الحمد أولًا وآخرًا، ولك الحمد دائمًا وأبدًا.

- وأخيرًا يجب أن نعلم أيضًا، أن التزكية ليست رهبانية، ولا رياضة روحية، ولا مجاهدات بدنية، ولا زهدًا فيما لا تملك، ولا طلبًا للفقر والذل.
- وإنما التزكية الحقيقية هي التي تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية، ضمن منهج القرآن والسنة، فيصل بها المسلم إلى سعادة الدارين، الدنيا والآخرة.

- وعلى هذا الأساس يمكننا أن نجعل التزكية على قسمين: أحدها التزكية المرضية، والآخر التزكية المردودة، وقد ضرب لذلك الشيخ التهانوي مثالًا فقال:

- تغسل المرآة القذرة بالماء الصافي الخالص فتصبح رائقة لماعة، فتُعجب رائيها لكنها إن غسلت بالبول زال عنها القذارة والوسخ الملموسان، وصفا مرآها بدون شك لكنها لن تتطهر، ولن تعجب الناس، ولن تروقهم بل إنما تكرهها النفوس وتتقذر منها، فلذلك لا يمكن لرجل ما أن يحرز رحمة الله، وينال الفلاح يوم الآخرة، وحياته متعارضة مع الشريعة الإسلامية»[1]

- التزكية المرضية إذاً ما وافقت الشريعة، وانعكست في النفس علمًا وعملًا وأخلاقًا وسلوكًا، فكانت أداة صالحة لرفع الدرجات عند الله عز وجل، وسعادة في الدنيا والآخرة وعند الله والناس أجمعين.



(١) بين التصوف والحياة، عبد الباري الندوي ص٢٩.

التقوى عمود زكاة النفس

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وهذا الأمر بتقوى الله تعالى بمعنى قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن: ١٦]

وهذا ليس ناسخا للأول؛ بل مثله.

قال أبو محمد القيسي[١]: وأكثر العلماء على أنه محكم، لا نسخ فيه[٢]؛ لأن الأمر بتقوى الله لا ينسخ، والآيتان ترجعان إلى معنى واحد.

قال أبو محمد: وهذا القول حسن؛ لأن معنى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾: اتقوه بغاية الطاقة، فهو قوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾؛ إذ لا جائز أن يكلف الله أحدا ما لا يطيق، وتقوى الله بغاية الطاقة واجب فرض لا يجوز نسخه؛ لأن في نسخه إجازة التقصير من الطاقة في التقوى، وهذا لا يجوز.

وقد قال قتادة والسدي وطاووس: «حَقَّ تُقَاتِهِ»: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر[٣].

---

(١) «الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه» (٢٠٣-٢٠٤). وانظر: «زاد المعاد» (٣/٨).

(٢) وهذا هو الصواب الذي لا ريب فيه، ويؤيده افتتاح النبي صلى الله عليه وسلم خطبة الحاجة بها بعد قوله: «إن الحمد لله نحمده.. إلخ»، ثم بآيتين محكمتين تأمران بالتقوى، ولو كانت منسوخة لما قدمها على الآيتين المشار إليهما، ولعدل عنها إلى الناسخة أو غيرها، أو قرنها بها؛ لإظهار المراد منها، والله أعلم.

(٣) وجاء هذا من قول ابن مسعود رضي الله عنه بإسناد صححه ابن كثير في «تفسيره» (١/٣٨٧).

قال أبو محمد: ولا يجوز نسخ شيء من هذا اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٣]

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨، ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

قال ابن رجب(١): فهو سبحانه أهل أن يخشى ويهاب ويجل ويعظم في صدور عباده، حتى يعبدوه ويطيعوه؛ لما يستحقه من الإجلال والإكرام، وصفات الكبرياء والعظمة، وقوة البطش، وشدة البأس.



(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ١٤٨).

في أن التقوى وصية الله تعالى للأولين والآخرين

والتقوى وصية الله تعالى للأولين والآخرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وقد بلغت الرسل عليهم الصلاة والسلام هذه الوصية العظمى لأقوامهم، وذلك قيامًا بحق الله تعالى عليهم من التبليغ والإنذار؛ فقال الله جل وعلا عن نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٦ – ١٠٨].

وعن هود عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٤ – ١٢٦].

وعن صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٢ – ١٤٤].

وعن لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٦١ – ١٦٣]

وعن شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٧٧ – ١٧٩]

وعن إلياس عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٣ و ١٢٤].

وعلى لسان عيسى عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠] وعن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ

﴿لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦]

وأما سيد الخلق محمد ﷺ؛ فقد بلغ وصية الله تعالى للعالم كله؛ إنسه وجنه، وذلك بأن بلغ الشاهد وأمره بتبليغ الغائب، فبلغ ﷺ كتاب الله تعالى، وما فيه من الأمر بتقوى الله عز وجل، وكذا بلغ من قوله -وهو الوحي الثاني-؛ فمن ذلك ما رواه العرباض بن سارية، قال: وعظنا رسول الله ﷺ يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع، فبما تعهد إلينا يا رسول الله! قال: **«أوصيكم بتقوى الله»** الحديث[١].

وعن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فقال: **«اتقوا الله ربكم، وصلو خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم؛ تدخلوا جنة ربكم»**[٢].

ووصى أبا سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -والوصية لسائر الأمة- فقال له: **«أوصيك بتقوى الله تعالى؛ فإنه رأس كل شيء»** الحديث[٣].

ووصى أبا ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال له: **«أوصيك بتقوى الله تعالى في سر أمرك وعلانيته، وإذا أسأت؛ فأحسن»** الحديث.[٤]

---

(١) أخرجه الدارمي (١/٤٤-٤٥)، وأبو داوود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢و٤٣و٤٤)، والحاكم (١/٩٥-٩٧)، وقال: صحيح ليس له علة، ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن حبان (١/١٠٤-إحسان)، وأحمد (٤/١٢٦و١٢٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/١٨١-١٨٢)، وغيرهم. وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٤٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٦١٦)، وقال: حسن صحيح، وابن حيان (٧٩٥-موارد)، والحاكم (١/٩و٣٨٩)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأقرهما الألباني في «الصحيحة» (٢/٥٥١)، وأخرجه أحمد (٥/٢٥١و٢٦٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣/٨٢) وغيره، وحسنه الألباني لغيره في «الصحيحة» (رقم٥٥٥).

(٤) أخرجه أحمد (٥/١٨١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (رقم ٢٥٤١).

وقال له: **«اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»**[١].



(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم (١/٥٤)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وأخرجه الدارمي (٢/٣٢٣)، وأحمد (٥/١٥٣و١٥٨و١٧٧) وغيرهما، وحسنه الألباني في «المشكاة» (رقم ٥٠٨٣).

في بيان معنى التقوى وحقيقتها ومراتبها

وقال ابن رجب[1]: أصل «التقوى»: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقية منه، فتقوى العبد لربه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه، من غضبه وسخطه وعقابه، وقاية تقية من ذلك، وهي فعل طاعته واجتناب معاصيه.

وقال[2]: أصل «التقوى»: أن يعلم العبد ما يتقي، ثم يتقي.

وقال ابن القيم[3]: أما التقوى فحقيقتها: العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به؛ إيمانًا بالأمر، وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه؛ إيمانًا بالنهي، وخوفًا من وعيده؛ كما قال طلق بن حبيب: إذا وقعت الفتنة، فأطفئوها بالتقوى. قالوا: وما التقوى؟ قال أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك المعصية على نور من الله، تخاف عقاب الله.

وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى؛ فإن كل عامل لا بد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتى يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة ولا الهوى، ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك، بل لابد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته، وهو احتساب اهـ.

(تنبيه): قد تأتي «التقوى» في الشرع بمعنى الخوف وخشية العذاب، الموجبة للانكفاف عن المحارم[4]؛ كما في قول الله تعالى: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ١٤٨).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص ١٥٠).

(٣) «الرسالة التبوكية» (ص ٨).

(٤) انظر: «فتاوى شيخ الإسلام» (١٠/٦٥٩).

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦]

قال ابن كثير[(١)]: أي: أخلصوا له العبادة والخوف اهـ.

وقد تأتي «التقوى» بمعنى اجتناب النواهي، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

قال الطبري[(٢)]: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾: وليعن بعضكم أيها المؤمنون بعضًا على البر؛ وهو العمل بما أمر الله بالعمل به. والتقوى: هو اتقاء ما أمر الله باتقائه واجتنابه من معاصيه.

وقال السعدي[(٣)]: «التقوى» في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله من الأعمال الظاهرة والباطنة.

قال ابن رجب[(٤)]: وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال أبو هريرة وسئل عن التقوى فقال: هل أخذت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه. قال ذاك التقوى.

وأخذ هذا المعنى ابن المعتمر فقال:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التقى

واصنع كماش فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى اهـ

(تنبيه آخر): تقدم -آنفًا- أن تقوى العبد ربه أن يجعل بينه وبين عذابه وعقوبته

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/٤٠٧).

(٢) «جامع البيان» (٦/٤٣).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (١/٤٥٢).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (ص ١٥٠).

وقاية وتقية منه، فتقوى العبد ربه هي نفسها اتقاء عذابه.

وقد تكرر في الكتاب والسنة الأمر باتقاء النار والعذاب، واتقاء يوم القيامة وما فيه من الزلازل والأخطار، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وعن عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: **«اتقوا النار»**، ثم أعرض وأشاح، ثم قال: **«اتقوا النار»**، ثم أعرض وأشاح -ثلاثًا-، حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: **« اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد، فبكلمة طيبة»**[١].

وأما اتقاء يوم القيامة ففي مثل قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وأحيانًا يأمر الله تعالى بتقواه، وينبه مع ذلك إلى ما في يوم القيامة من الأهوال؛ لأن هذا مما يعين على التقوى وييسرها. فتفصيل ما يتقى وبيانه مما يعين على اتقائه كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١ و ٢].

وكما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

قال السعدي[٢]: يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي: امتثال أوامره وترك زواجره،

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٤٠٠-فتح)، وفي مواضع أخر، ومسلم (١٠١٦)، وغيرهما.

(٢) «التيسير» (٤/ ١١٨).

ويستلفتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد الذي فيه كل أحد لا يهمه إلا نفسه ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ يزيد في حسناته، ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

فلفت النظر لهذا اليوم المهول، مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزجرهم عنه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين!



فصل

ويدخل في التقوى الكاملة -كما قال ابن رجب[1]- فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، ولربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك المكروهات وهي أعلى درجات التقوى.

وقال ابن القيم[2]: التقوى ثلاث مراتب:

إحداها: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات.

الثانية: حميتها عن المكروهات.

الثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعني.

فالأولى تعطي العبد حياته، والثانية تفيده صحته وقوته، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته.



(١) «جامع العلوم» (ص ١٤٩).

(٢) «الفوائد» (ص ٤٦).

فصل

في أن التقوى خير الزاد

وتقوى الله عز وجل خير ما أعده العبد لآخرته، ونجاته وفلاحه بالتزود منها في سفره للقاء مولاه، قال جل وعلا: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال السعدي[١]: أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك[٢]، فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم. وهذا الزاد -الذي المراد منه إقامة البنية- بلغة ومتاع، وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه فهو زاد التقوى، الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة وأجل نعيم دائمًا أبدًا، ومن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به، الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدح للتقوى.

ثم أمر بها أولي الألباب فقال: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: يا أهل العقول الرزينة اتقوا ربكم، الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل وفساد الرأي اهـ.

قال القاسمي[٣]: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: اتقوا عقابي وعذابي في مخالفتي وعصياني يا ذوي العقول والأفهام! فإن قضية اللب تقوى الله، ومن لم يتقه من الألباء،

---

(١) «التيسير» (١/١٥٨).

(٢) يعني: الحج.

(٣) «محاسن التأويل» (٣/١٥٥).

فكأنه لا لب له كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] اهـ.

ويشبه قوله تعالى هذا قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

قال القاسمي(١): لما ذكر اللباس الحسي؛ نبه مرشدا إلى اللباس المعنوي وهو الخشوع والطاعة، وذكر أنه خير من هذا وأنفع اهـ.

وقال الشاعر(٢):

كيف الرحيل بلا زاد إلى وطن ... ما ينفع المرء فيه غير تقواه

من لم يكن زاده التقوى فليس له ... يوم القيامة عذر عند مولاه

وقال غيره(٣):

صروف الحتف مترعة الكؤوس ... تدور على الرعايا والرؤوس

فلا تتبع هواك فكل شخص ... يصير إلى بلى وإلى دروس

وخف من هول يوم قمطرير ... مخوف شره ضنك عبوس(٤)

فما لك غير تقوى الله زادٌ ... وفعلك حين تقبر من أنيس

وفي المدهش(٥): أيها المقصر عن طلب الزاد كيف تدرك المعالي بغير اجتهاد؟ أين أهل السهر من أهل الرقاد؟ أين الراغبون في الهوى من الزهاد؟ رحل المتيقظون مستظهرين بكثرة الزاد، كل جواد لهم يعرف الجواد.

---

(١) «محاسن التأويل» (٣/١٥٥).

(٢) «المدهش» (ص ٥٤١).

(٣) «لطائف المعارف» (ص ٩٩).

(٤) فيه اقتباس من قوله تعالى: «إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا» [الإنسان: ١٠]. و(العبوس): الضيق، و(القمطرير): الطويل؛ كما في «تفسير ابن كثير» (٤/٤٥٤)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) (ص ٤٣٠).

وفيه[١]: إخواني! سار المتقون ورجعنا، ووصلوا وانقطعنا، وأجابوا الداعي وامتنعنا، ونجو من الأشراك ووقعنا، تعالوا ننظر في آثارهم، وندرس دارس أخبارهم، ونبكي على التفريط ما نابنا، ونندب ما لحقنا وأصابنا.

وفيه[٢]: لله در أقوام علموا قرب الرحيل؛ فهيئوا آلة السفر، وهنوا بالدنيا؛ فقنعوا منها بما حضر، واستوثقوا بقفل التقوى من أذى النطق والنظر، ما لك خبر بحالهم، ولا عندك منهم خبر، قاموا في الجد وقعدت، وسهروا في الدجى ورقدت.

وفي «التبصرة»[٣]:

عليــــك بـــــما يفيـــدك في المعـــاد	ومـــا تنجـــو بـــه يـــوم التنـــاد
فـــما لـــك لـــيس ينفـــع فيـــك وعـــظ	ولا زجـــر كأنـــك مـــن جمـــاد
ســـتندم إن رحلـــت بغـــير زاد	وتشـــقى إذ ينـاديـــك المنـــادي
فـــلا تفـــرح بـــمال تقتنيـــه	فإنـــك فيـــه معكـــوس المـــراد
وتـــب ممـــا جنيـــت وأنـــت حـــي	وكـــن متنبهـــا مـــن ذا الرقـــاد

وقال ابن القيم[٤]: اشتر نفسك اليوم؛ فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾.

إذ أنـت لم ترحـل بـزاد مـن التقـى	وأبصرـت يـوم الحشرـ مـن قـد تـزودا

---

(١) (ص ٤٢٢).

(٢) (ص ٥١٠).

(٣) (١/٢٨٥).

(٤) «الفوائد» (ص ٦٤).

ندمت على ألا تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

وقال بعض الحكماء: يا أخي، فإني أحذرك ونفسي مقامًا عنت فيه الوجوه، وخعت فيه الأصوات، وذل فيه الجبارون، وتضعضع فيه المتكبرون، واستسلم فيه الأولون والآخرون بالذل والمسكنة والخضوع لرب العالمين، وقد جمعهم الواحد القهار الذي لا ثاني له في الهيبة، ولا مشارك في حكمه، جمعهم بعد طول البلى للفصل والقضاء، في يوم آلى فيه على نفسه: بألا يترك فيه عبدًا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسائله عن عمله في سره وعلانيته.

فانظر بأي بدن تقف بين يديه، وأعد للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، فإنه لا يصدق إلا الصادقين، ولا يكذب إلا الكاذبين، فليكن أول ما تبدأ به من العدة لذلك المقام؛ تقوى الله عز وجل في السر والعلانية؛ ليأمن قلبك في ذلك المقام مع قلوب المتقين، حين ينجز لهم ما وعدهم من الأمن والغبطة والسرور.



في فضائل التقوى

جاءت مادة التقوى في القرآن المجيد؛ أمرًا بها، وتعظيمًا لشأنها، وذكرًا لفضلها، ووصفا لأهلها، وبيانًا لعاقبتهم في الدنيا والآخرة أكثر من مئتي مرة، فلتقوى الله جل وعلا فضائل كثيرة، ومنافع جسيمة، وثمرات عظيمة، وما من خير إلا بها ومنها، وأذكر هنا على سبيل الإشارة والاختصار بعض فضائلها.

فمن ذلك: أنها سبب محبة الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣ و ٤]

فيا فوز من نال محبة الحق جل وعلا! ويا عظيم سعادته في الدنيا والآخرة! ولله تلك القلوب التقية، ولله ما فازت به من محبة الولي الودود، ولله تعالى ما هم فيه من خير ولذة، وسرور ونعمة لا يدرك كنهها إلا من بيده الخير كله، فهو ولي المتقين، وأكرم الأكرمين، الذي وفق عباده لتقواه، ثم أحبهم عليها، فيا الله ما أعظم كرمه! وما أجل نعمته! وما أكثر عطاياها! نسأله أن يرزقنا التقوى؛ لنحظى بشرف محبته، ونفوز بنعيم قربه، فنسعد سعادة لا نشقى بعدها أبدًا.

ومنها: أن التقوى سبب رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]

ومنها: أنها سبب لعون الله تعالى ونصره وتأييده، وكل ما تقتضيه معية الله تعالى الخاصة لعبده المتقي، والمراد بمثل قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

فمن كان الله معه فلا حاجة له في أحد، ومن كان الله معه فهو السعيد حقًا، وهو المرحوم والغني والفائز، فلا خوف عليه والله! ولا حزن ولا هم ولا غم، وبحسب تقواه يكون عون الله تعالى له، ونصره إياه.

ومنها: أن التقوى سبب التوفيق لخيري الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥ – ٧].

ومنها: أن التقوى حصن الخائف، وأمانه من كل ما يخاف ويحذر من سوء ومكروه في الدنيا والآخرة، فلا خوف على المتقي ولا حزن ولا سوء بوجه من الوجوه؛ فإنه قد وصل شاطيء الأمان، راكبا سفينة النجاة قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١].

ومن فضائل التقوى: أنها تبعث في القلب النور وتقوي بصيرته؛ فيميز بين ما ينفعه وما يضره، وهي سبب تكفير السيئات ومغفرة الذنوب التي هي سبب ظلمة القلب وعمى بصيرته ومرضه وهلاكه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]

والتقوى تعطي العبد قوة لغلبة الشيطان، فإن الشيطان دائم النزغ والسوسة لهذا العبد الضعيف الذي يقوى بتقواه، التي تذكره بالله تعالى، وتخوفه المقام بين يديه، وتدعوه إلى ترك ما يدعو إليه عدوه، وإن وقع في المخالفة، فإن تقواه تدعوه إلى التوبة واستدراك الفارط كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والتقوى وسيلة إلى نيل الأجر العظيم كما قال عز وجل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

والتقوى توسع الرزق، وتفتح مزيد خيرات السماء والأرض، وتخرج المتقي من كل ضيق وشدة من شدائد الدنيا والآخرة، وتيسر أمره بإذن ربه تبارك وتعالى، وكفى بهذا فضلا، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢و ٣]

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤].

والتقوى من أعظم الأسباب الجالبة للنصر على الأعداء، ودفع شرهم، ورد كيدهم في نحورهم كما قال جل وعلا:

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال سبحانه: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

قال في «محاسن التأويل»[1]: (مسومين) بكسر الواو؛ أي: معلمين أنفسهم بأداة الحرب، على عادة الفرسان يوم اللقاء ليعرفوا بها. وقرىء بفتح الواو؛ أي: معلمين من قِبله تعالى اهـ.

ومن فضائل التقوى: أنها سبب في صلاح الأعمال، ومغفرة الذنوب والأوزار كما قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ و ٧١].

---

(١) (٤/٢١٩).

قال في «تيسير الكريم الرحمن»:[١] يأمر تعالى المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم في السر والعلانية، ويخص منها ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب، أو المقارب له عند تعذر اليقين من قراءة وذكر، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليم، والحرص على إصابة الصواب في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق يوصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه. ومن القول السديد لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلح.

ثم ذكر ما يترتب على تقواه وقول القول السديد، فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: يكون ذلك سببًا لصلاحها، وطريقًا لقبولها؛ لأن استعمال التقوى تتقبل به الأعمال، كما قال تعالى[٢]: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال أيضا بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفاته، كما أن الإخلال بالتقوى والقول السديد سبب لفساد الأعمال، وعدم قبولها، وعدم ترتب آثارها عليها. «وَيَغْفِرْ لَكُمْ» أيضا «ذُنُوبَكُمْ» التي هي السبب في هلاككم.

فبالتقوى تستقيم الأمور، ويندفع بها كل محذور، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

ومن فضل التقوى: أنها صفة أولياء الله تعالى المنسوبين إليه، وكفى بهذا شرفًا، بالإضافة إلى أنه سبحانه أمّنهم من الخوف والحزن، ووعدهم ببشرى الدنيا والآخرة، قال تبارك اسمه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾

[يونس: ٦٢ – ٦٤]

---

(١) (١٧٣/٤).

(٢) على لسان الصالح من ابني آدم، [المائدة: ٢٧]

قال في «تيسير الكريم الرحمن»[1]: يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيما يستقبلونه، مما أمامهم من المخاوف والأهوال.﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا؛ لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى، بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي.

فكل من كان مؤمنًا تقيًا كان لله تعالى وليا؛ لذلك كانت ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أما البشارة في الدنيا فهي الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساويء الأخلاق، وأما الآخرة؛ فأولها البشارة عند قبض أرواحهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى، والنعيم المقيم. وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم اهـ.

ويكفي في فضل التقوى وشرفها، أن قدر العبد عند الله تعالى يكون بحسب ما حصل منها، فهي الميزان التي يوزن بها العباد، كما قال الله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) (٢/٣٢٨-٣٢٩).

قال الطبري[(١)]**:** قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: إن أكرمكم أيها الناس عند ربكم؛ أشدكم اتقاء له بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتًا، ولا أكثركم عشيرة.

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «**أتقاهم لله**» الحديث.[(٢)]

وعن سمرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ؛ قال: «**الحسب: المال، والكرم: التقوى**»[(٣)].

قال المناوي:[(٤)] قيل: أصل (الكرم): كثرة الخير، فلما كان المتقي كثير الخير، كثير العوائد والفوائد في الدنيا، وله الدرجات العلى في العقبى؛ كان أعم الناس كرمًا فكأنه لا كرم إلا التقوى اهـ.

وأخيرًا، فالتقوى هي سبب كل خير في الدنيا والآخرة، وهي -لا سواها- سبب الفوز بالجنة، وما فيها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والنجاة من النار وعذابها الشديد العظيم والأليم العقيم، قال الله تعالى:﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الطور: ١٧ و ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥١: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥].

---

(١) «جامع البيان» (١١/٣٩٩-ط العلمية).

(٢) أخرجه البخاري (٦/٤١٧-فتح)، وفي مواضع أخر.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٧١)، وقال: حسن صحيح غريب، وابن ماجه (٤٢١٩)، وغيرهما. وصححه الألباني لشواهده في «الإرواء» تحت الحديث (رقم ١٨٧٠).

(٤) «فيض القدير» (٣/٤١٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣١ – ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]

قال السعدي[(١)]: «فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ» أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضا الملك الديان، والفوز بقربه.

وفي «محاسن التأويل»:[(٢)] **قال الشهاب:** في تنكير الاسمين الكريمين[(٣)] إشارة إلى أن ملكه وقدرته لا تدري الأفهام كنههما، وأن قربهم منه بمنزلة من السعادة والكرامة بحيث لا عين رأت، ولا أذن سمعت، مما يجل عن البيان، وتكل دونه الأذهان اهـ.

وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

وقال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

بل قد سمى الله تعالى جنات عدن: «دار المتقين»، فأنعم بهذا شرفًا للتقوى وأهلها، قال الكريم الرحمن: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٠ – ٣٢].

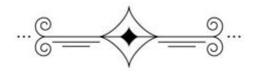
---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/١٤٦).

(٢) (١٥/٢٧٧).

(٣) يعني: اسمي «المليك» و «المقتدر».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «تقوى الله وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، قال: «الفم والفرج»[(١)]



□

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وغيرهما. وقال الألباني في «صحيح الترمذي» (١٩١/٢): حسن الإسناد. وهو في «الصحيحة» (رقم ٩٧٧).

محاسبة النفس

روى الإمام أحمد: [1] «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» وأخرجه الترمذي.

وأيضًا روى الإمام عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر.

ونجد أن محاسبة النفس نوعان:

النوع الأول: «وهذا يكون قبل العمل»

وهو أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه. وشرح العلماء ذلك قائلين: إنه إذا تركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد وقف أولًا ونظر: هل هذا العمل مقدور عليه أو غير مقدور عليه؟ فإن كان الثاني لم يقدم، وإن كان الأول وقف وقفة (ثانية)، ونظر أيضًا، وسأل: هل فعله خير له من تركه، أم تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تَرَكَه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة أيضًا (ثالثة) ويسأل نفسه: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه، أم إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم وإن كان الأول وقف وقفة (رابعة) ونظر أيضًا وسأل ...؟ هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان محتاجًا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان يساعدونه وينصرونه أمسك عنه «مثال ذلك إمساك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له

---

(١) تزكية النفوس.

أعوان وشوكة وأنصار» وإن وجده معانًا عليه فليقدم عليه فإنه منصور بإذن الله، ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح، فهذه أربعة مقامات يحتاج العبد إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل.

النوع الثاني: «ويكون بعد العمل»:

وهذا النوع ينقسم إلى ثلاثة أقسام كالتالي:

أ- محاسبة النفس على طاعة قصرت فيها ولم تؤدَّها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله في الطاعة عليها، ستة أمور هي:

١) الإخلاص في العمل.

٢) النصيحة لله فيه.

٣) متابعة الرسول ﷺ.

٤) شهود مشهد الإحسان.

٥) شهود منة الله عليه.

٦) شهود تقصيره فيه.

ب- أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

ج- أن يحاسب نفسه على كل عمل مباح: لِمَ فعله؟ هل أراد به وجه الله فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا، فيكون خاسرًا.

قال تعالى: ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٨] ففي هذه الآية يُسْأَل الصادقون عن صدقهم ويحاسبون على ذلك، إذًا فما الظن بالكاذبين؟

فوائد محاسبة النفس

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ [آل عمران: ٣٠] وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]

اقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة، لذا وجب علينا الاطلاع على عيوبنا، ولا ينجينا من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة [١] لأنفسنا وصدق المراقبة، فمن حاسب نفسه في الدنيا خف حسابه يوم القيامة وحَسُنَ منقلبه، ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته.

إن العقل يحتاج إلى مشاركة النفس، وأن يوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح. ثم إنه لا يغفل عن مراقبتها، فإنه لا يأمن خيانتها، وألا يغفل عن جوارحه، فالعين يحفظها عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، وهكذا مع باقي الأعضاء، وأن يكون متجهًا إلى الحلال متجنبًا الحرام، وكذلك يعاتبها ويعاقبها عن أي كسل أو خمول ليستوفي منها ما فرط، وأن يجاهد نفسه في العمل للزيادة لا النقصان، وبذلك[٢] تعرف حق الله تعالى عليك، وهذا يجعلك ماقتًا لنفسك، مزريًا عليها، ويخلصك من العجب ورؤية العمل، ويفتح لك باب الخضوع والذل والانكسار بين يديه. وأن النجاة لا تحصل لك إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن حقه أن يُطاع ولا يعصى، وأن يُذكَر فلا ينسى، وأن يُشكرَ فلا يكفر جل جلاله وتقدَّست أسماؤه وصفاته.



(١) مختصر منهاج القاصدين.

(٢) تزكية النفوس.

صفات النفس الخُلقية والمطلوب منها

إن[1] الخُلق الحسن صفة الأنبياء والصديقين، وكثيرًا ما نسمع أن فلانًا من الناس حسن الخَلق والخلُق، أي: حسن الظاهر والباطن، فالمراد بالخَلق (بالفتحة): الصورة الظاهرة، وأما المراد بالخُلق (بالضمة): الصورة الباطنة، وذلك أن الإنسان مركب من جسد ونفس، أي: مادة وروح، فالجسد مدرك بالبصر (العين) والنفس مدركة بالبصيرة (القلب)، ولكل واحدة منهما هيئة وصورة إما جميلة وإما قبيحة. والنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرًا من الجسد المدرك بالبصر، لذلك عظّم الله سبحانه وتعالى أمرها، فقال تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾

[ص: ٧١، ٧٢]

فنجد في الآية الكريمة أن الخالق سبحانه وتعالى نسب هذا المخلوق إلى أصله الذي هو الطين ونسب الروح إليه سبحانه وتعالى.

إذًا فالخُلق (بالضمة) عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الأفعال جميلة سميت خلُقًا جميلًا وحسنًا، وإن كانت قبيحة سميت خلُقًا سيئًا وقبيحًا، ويجب أن نعلم أن الأخلاق تتغير وتتأثر بالمواعظ والوصايا، لذا فإن دوامها يؤثر كما أن تعاطي أسباب الفضائل يؤثر في النفس ويغير طباعها، وكذلك بمصاحبة أهل الأَخلاق الحسنة وأهل الخير ومجالس الذكر وأهل العلم، وكما في الحديث[2] عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**المرء**

(١) مختصر منهاج القاصدين.

(٢) رواه الترمذي.

على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» ويجب ألا ننسى أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة في النفس، والميل عن الاعتدال سقم ومرض، فالنفس كالجسد تحتاج إلى علاج، والجسد لا يخلق كاملًا وإنما يكمل بالتربية وبالغذاء، وكذا النفس تكتمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم.

وكما ذكرت أن الاعتدال مطلوب في الأخلاق ولكن يجب أيضًا أن نلفت الأنظار إلى أننا قد نصاب بالتطرف والغلو أو التفريط والتقصير، فمن ذلك نرى أن النفس قد تتصف بصفات الخير أو بصفات الشر، ومع ذلك:

خشوع الإيمان وخُشوع النفاق:

خشوع الإيمان: هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ممتلئة من الوجل والخجل والحب، فبخشوع القلب تخشع الجوارح وتخمد نيران شهوته ويطمئن القلب بالسكينة ويشرق فيه نور الله، بينما خشوع النفاق نجده على الجوارح تصنعًا وتكلفًا والقلب غير خاشع أي: ليس حاضرًا، ومشتت الفكر والنظرات.

شرف النفس والتيه:

شرف النفس: هو صيانتها عن الدنايا والرذائل والمطامع التي تقطع الأعناق، وبذلك يتحقق إكرام النفس وإعزازها بخلاف التيه الذي هو عبارة عن خلق متولد بين أمرين: إعجابه بنفسه، وازدرائه بغيره، وبهذا يكون عبدًا دنيئًا وضعيفًا وخسيسًا.

الحمية والجفاء:

الحمية: هي فطام النفس عن رضاع اللؤم كالخبائث والرذائل... إلخ بعكس الجفاء الذي هو: غلظة في النفس، وقساوة في القلب، وكثافة في الطبع، يتولد عنها ما يسمى بالجفاء.

التواضع والمهانة:

التواضع: هو خلق يتولد من العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته وتعظيمه ومحبته وإجلاله ومن معرفة العبد بنفسه وعيوبه، فيتولد من ذلك كله خلق التواضع وهو انكسار القلب لله والذل له، فلا يرى له على أحد فضلًا، ولا يرى له عند أحد حقًا، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه.

والتواضع المحمود على نوعين:

أ- **تواضع العبد عند أمر الله** امتثالًا وعند نهيه اجتنابًا، فالنفس تطلب الراحة وتتلكأ في أمره فيبدو منها نوع إباء وهروب من العبودية، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية.

ب- **تواضع لعظمة الرب وجلاله** وخضوعه لعزته وكبريائه فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه واطمأن لهيبته.

أما المهانة فهي الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها فسيطر عليها هواها وسهل مدخل الشيطان عليها.

الحمية لله والحمية للنفس:

فالأولى يثيرها تعظيم الأمر، فإذا غضب فإنما يغضب من أجل الله وتعظيم حق الله ولا يهدأ حتى ينتقم لله، بعكس الثانية التي يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها ومنافعها الدنيوية.

الجود والإسراف:

الأولى: تكون في الحكيم، يضع العطاء في مواضعه، ومنه السخاء. بينما **الثانية**:

فيكون العطاء مرة في موضعه وكثيرًا في غير موضعه وهي صفة مذمومة.

المهابة والكبر:

الأولى: هي امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وظهور ذلك على وجهه فمالت إليه الأفئدة، وقرت به العيون، وأنست به القلوب، فإن تكلم أخذ كلامه بالقلوب والأسماع، وإن سكت علاه الوقار. بينما **الكبر:** أثر من آثار الإعجاب بالنفس والبغي، وهذا ناتج من قلب امتلأ بالجهل والظلم، حيث لا يرى حقًا لأحد ولا فضلًا، وتكون نظرته للناس بغضًا أو حقدًا ويعاملهم بالاستئثار لا الإيثار والإنصاف، ويقرب من ذلك الصيانة والتكبر، فالأولى تراه يجتنب الذنوب وآثارها، بينما الثانية العلو فهو يقصده.

الشجاعة والجرأة:

الأولى: هي الثبات واستقراره عند المخاوف، وهو خلُق يتولد من الصبر وحسن الظن، فإنه متى ظن الظفر وساعده الصبر ثبت، وهي حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته، فإذا رأته الأعضاء أعانته وخدمته، بينما **الجرأة**: هي إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر في العاقبة، بل تقدم النفس في غير موضع الإقدام معرضة عن ملاحظة العارض فإما عليه وإما لها.

الحزم والجبن:

الأولى: تدل على القوة والإجماع، أي: جمع همه وإرادته وعقله ووزن بعضها ببعض فأعد لكل منها قرنه ومنه القوة في أمر الله، بينما **الجبن** يتولد من سوء الظن وعدم الصبر، فلا يظن الظفر ولا يساعده الصبر. وأصله من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء، ويُقال: إنه ينشأ من الرئة حيث إن الرئة تنتفخ فتزاحم القلب في مكانه وتضيق عليه حتى تزعجه عن مستقره فتصيبه الزلازل والاضطرابات لإزعاج الرئة

وتضييقها عليه، ولهذا جاء في حديث[١] عمرو بن العاص عن النبي ﷺ «**شر ما في المرء جبن خالع وشح هالع**» وسمي بذلك الجبن خالعًا؛ لأنه يخلع القلب عن مكانه ويزيله عنه. وإذا زال القلب عن مكانه ضاع تدبير العقل فظهر الفساد في الجوارح فوضعت الأمور على غير موضعها.

الشح والاقتصاد:

الأولى: فهي خلق ذميم يتولد من سوء الظن – ضعف النفس – ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعًا، وهو شدة الحرص على الشيء، فيتولد عنه المنع لبذله والجزع لفقده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١]

أما الثانية: فهي خلق محمود يتولد من خلقين: عدل وحكمة. فبالعدل يعتدل في المنع والبذل، وبالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذي يليق به، فيتولد من بينهما الاقتصاد، وهو وسط بين طرفين مذمومين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]. ويمكن أن نقول: إن الاقتصاد حالة وسط بين التقصير والتفريط.

الاحتراز وسوء الظن:

الأولى: فإنها تدل على أنه كالمتسلح المتدرع الذي تأهب للقاء عدوه وأعد له عدته، والأخذ بالأسباب التي بها ينجو من المكروه، والمبالغة في اتباع السنة من باب الاحتياط والاستقصاء، بعكس الوسوسة.

أما سوء الظن فهو امتلاء القلب بالظنون السيئة حتى يطفح ويظهر على لسانه وجوارحه من همز ولمز وعيب وبغض وحسد وحقد ... إلخ، وعدم سلامة قلبه

---

(١) رواه أحمد.

وإقدامه على الشر بعد معرفته لما يعتري قلبه من مرض الشبهة، حتى نرى صاحب ذلك الخلق الذميم يلحق الأذى رغم ابتعاده وعدم المخالطة لغيره، بعكس الأولى: يخالط ولكن محترز دون غفلة وبلاهة وقلة معرفة.

الظن والفراسة:

الأولى: تكون مع ظلمة القلب ونوره، أو طهارته ونجاسته ولهذا أمر الله تعالى باجتناب كثير منه، وأخبر أن بعض الظن إثم.

أما الفراسة: فأثنى الله على أهلها ومدحهم. والفراسة الصادقة للقلب قد تطهر وتصفي وتنزه القلب من الأدناس وتقربه من الله، فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه، كما في الحديث قال أبي سعيد: قال رسول الله ﷺ:«**اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله ... الحديث**».(١)

وهناك أمثلة كثيرة لا يتسع المجال لذكرها، ولكن يمكن الرجوع إليها في أمهات الكتب، حيث إن شأن الفراسة عظيم وأنها نور يقذفه الله في القلب فيخطر له الشيء، فيكون كما خطر له، وينفذ إلى العين فترى ما لا يراه غيرها.

النصيحة والغيبة:

الأولى: خلق محمود يقصد منه تحذير المسلم من مبتدع أو فتان أو غاش أو مفسدة وفي أي أمر من أمور حياتك الدينية أو الدنيوية استشارك فيه وقصدك لوجه الله وأشار إليك بالأصلح والأصوب، ولا يعاديك في حالة عدم قبولك لنصيحته وهي نصيحة إحسان يصدر عن رحمة ورقة.

أما الثانية: فهي خلق مذموم إذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغضَّ منه، لتضع منزلته من قلوب الناس، فهي الداء العضال ونار الحسنات

---

(١) رواه الترمذي.

التي تأكلها كما تأكل النار الحطب.

ملحوظة: يمكن أن تكون الغيبة قربة إلى الله من جملة الحسنات إذا وقعت على وجه النصيحة لله ولرسوله وعباده المسلمين، أما التأنيب فهو عمل في صورة ناصح مشفق مع أن الصحيح هو قصده الإهانة والذم.

العفو والذل:

إن العفو خلق محمود؛ لأنه إسقاط حقك جودًا وكرمًا وإحسانًا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق. بخلاف الذل، فإنه يترك الانتقام عجزًا وخوفًا ومهانة نفس، ويعتبر الذل من أخلاق النفس الأمارة بعكس العفو، فإنه من أخلاق النفس المطمئنة.

الرجاء والتمني:

الأولى: تكون ببذل الجهد واستفراغ الطاقة بالإتيان بأسباب الظفر والفوز، بعكس **التمني:** حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب.

الثقة والغرة:

الأولى: سكون يستند إلى أدلة وأمارات يسكن إليها القلب، فكلما قويت تلك، قويت الثقة مبادرًا إلى انتهاز الفرص في وقتها.

بينما الغرة: هي ثقة بمن لا يوثق به وسكون إلى من لا يسكن إليه؛ لأن النفس غرته وشيطانه وهواه وأمله الكاذب وقد يطلب الشيء قبل وقته مستعجلًا ذلك لشدة حرصه.

رقة القلب والجزع:

الأولى هي: الرأفة والرحمة، والله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يرحم عبدًا جعل في قلبه الرحمة والرأفة، وإذا أراد أن يعذبه نزعها منه.

أما الجزع: فهو ضعف في النفس وخوف في القلب، يمده شدة الطمع والحرص، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر.

التوكل والعجز:

الأولى: من عمل القلب وعبوديته اعتمادًا على الله وثقته به.

أما العجز: فهو تعطيل السبب والمسبب حيث يعتمد على الأول ويترك أو يهمل الثاني أو العكس.

المنافسة والحسد:

المنافسة: خلق محمود؛ لأنه يشتمل على النظر إلى الكمال الذي تشاهده من غيرك، فتنافسه حتى تكون مثله أو أكثر، دون أن تتمنى أن يزول عنه ما فيه من خير ونعمة، وهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر.

أما الحسد: فهو خلُق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ليس فيها حرص على الخير، فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد.

الوجد «الوجدة» والحقد:

أما الأولى: فهي الإحساس بالمؤلم والعلم به وتحرك النفس في رفعة وكمال، وهي تكون مع قوة القلب وصلابته.

أما الحقد: فهو مرض القلب ويتمثل في إضمار الشر وتوقعه كل وقت، وضيق في القلب واستيلاء ظلمة النفس، والحقد بطيء الزوال بعكس الأولى.



نماء النفس

النماء هو الجانب الإيجابي من تزكية النفس، ويعتني هذا الجانب بالتربية والزيادة في الخير وليس بالتطهير من الشهر، ويرجع النماء إلى باب عظيم من أبواب الدين وهو شعب الإيمان، والطاعات التي تزيد من خير النفس وصوابها وتكفر سقطها وزللها.

أولاً: بالذكر:

اعلم أنه ليس [1] بعد تلاوة القرآن عبادة تؤدَّى باللسان أفضل من ذكر الله سبحانه وتعالى، ورفع الحوائج بالأدعية الخالصة إليه تعالى، والدليل على فضل الذكر قوله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]

وأفضل [2] الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان وذكر القلب وحده أفضل؛ لأنه يثمر المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويردع عن التقصير في الطاعات والتمادي في المعاصي والسيئات، والذكر أفضل من الدعاء، وهو رأس الشكر، والذكر نوعان:

فالنوع الأول هو:

ذكر أسماء الله سبحانه وتعالى والثناء عليه بها، وهذا أيضًا له نوعان:

أ) **إنشاء الثناء عليه بها** من الذاكر؛ كسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ... وغيرها.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين.

(٢) الوابل الصيب.

ب) **الخبر عن الله تبارك وتعالى بأحكام أسمائه وصفاته** مثال قولك: الله عز وجل يسمع أصوات عباده. وهو ثلاثة أنواع: حمد، وثناء، ومجد. وهذه كلها مجتمعة في سورة الفاتحة.

أما النوع الثاني فهو:

ذكر أمره ونهيه، وهذا نوعان:

أ) **ذكره بذلك إخبارًا عنه** بأنه أمر بكذا، ونهى عن كذا، وأحب كذا، وسخط كذا، ورضي كذا.

ب) **ذكره عند أمره** فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب عنه.

وأفضل الذكر أن يكون بالقلب واللسان، وهو من أيسر العبادات ومن أجلها وأفضلها، والأذكار كثيرة لا يتسع المجال لذكرها، فحياة المسلم كلها: كل فعل أو قول يسبقه ذكر، قبل وعند وبعد النوم والأكل والشرب والخروج والدخول ... إلخ. وهذا لمن أراد جلاء القلب وصفاءه، ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلًا وشرفًا وهي أنه يورثه ذكر الله له.

وفي الذكر مائة فائدة سوف أذكر بعضًا منها:

يطرد الشيطان، ويرضي الرحمن، ويوجب محبته، ويزيل الهم والغم بالفرح والسرور والانبساط، نور في الوجه، ويعطيك المهابة والحلاوة والنضرة والإنابة، ويورث المراقبة حتى تدخل في باب الإحسان، وقوة القلب، يحط الخطايا، ويزيل الوحشة، والفرج وقت الشدة، صيانة اللسان يؤمن العبد من الحسرة، والفرج وقت الشدة، صيانة اللسان، يؤمن العبد من الحسرة، غراس الجنة، ويوجب الأمان من النسيان الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، وشدة البلاء والضيق (الضنك)، يداوي قسوة القلب، جلاب للنعم، وموجب للمزيد ودافع للنقم، أن جميع الأعمال إنما

شرعت إقامة لذكر الله، أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكرًا لله عز وجل، إدامة الذكر تنوب عن التطوعات وتقوم مقامها، يسهل الصعب، وييسر العسير، ويخفف المشاق، يعطي الذاكرة قوة، وسدًّا بين العبد وجهنم، أن الملائكة تستغفر له، أمان من النفاق، الأماكن التي ذكر الله فيها تشهد له يوم القيامة، كما أنه يجعل الدعاء مستجابًا، دور الجنة تبنى بالذكر، عمال الآخرة في سباق، والذاكرون هم أسبقهم، أن الله يباهي بهم ملائكته، يوجب الصلاة من الله وملائكته والقرب منه سبحانه وتعالى، كما أنه يعدل عتق الرقاب ونفقة الأموال والحمل على الخيل والضرب بالسيف في سبيل الله.

والذاكرون والذاكرات هم أولياء الرحمن الذين قال تعالى فيهم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]

ثانيًا: بالصلاة:

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]. وقال تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

والصلاة [(١)] عبادة تتضمن أقوالًا وأفعالًا مخصوصة مفتتحة بتكبير الله تعالى، مختتمة بالتسليم، ولها أوقات محدودة تؤدَّى بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]

وتتضمن أيضًا أركانًا وواجبات لا تتم إلا بها، وللصلاة في الإسلام منزلة عظيمة لا تعدلها أي عبادة، فهي عماد الدين وغرة العبادات، وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، فإن صلحت صلح سائر العمل، وإن فسدت فسد سائر العمل، وهي آخر وصية وصَّى بها رسول الله ﷺ أمته، جعل يقول: «**الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم**» وهي آخر ما يفقد من الدين.

---

(١) فقه السنة جزء ١.

وبلغ من عناية الإسلام بالصلاة أن أمر بالمحافظة عليها، فلا تسقط في الحضر والسفر والأمن والخوف والحرب حتى المرض (كل صلاة منها لها هيئة فلتراجع في مظانها)

والصلاة تشتمل على أقوال «كقراءة القرآن الكريم والذكر والدعاء» وأفعال «كالركوع والسجود». والصلاة [١] تكفر سيئات من أدى حقها وأكمل خشوعها ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه. فإذا انصرف منها وجد خفة من نفسه، وأحس بأثقال وأحمال قد وضعت عنه فوجد نشاطًا وراحة وروحًا، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها؛ لأنها قرة عينه ونعيم روحه، وجنة قلبه ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها ويستريح بها، لا منها وهذا للمحبين لها، فالمحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا، كما قال إمامنا وقدوتنا ونبينا محمد ﷺ [٢]: «**يا بلال أرحنا بالصلاة**». ولم يقل: أرحنا منها، وقال [٣] أيضًا: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**» فمن جعل قرة عينه في الصلاة ترى كيف تقر عينه بدونها؟ وكيف يطيق الصبر عنها؟ والمحبون لصلاتهم تصعد ولها نور وبرهان حتى يقبلها الرحمن عز وجل فتقول الصلاة: حفظك الله تعالى كما حفظتني.

مراتب الناس في صلاتهم

الأول: الظالم لنفسه المفرط، وهذا يكون أدى الصلاة ولكن أنقص شيئًا من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها، فهذا يعاب على تقصيره.

الثاني: المحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها ووضوئها، ولكن ضيَّع مجاهدة نفسه في دفع الوسوسة والانشغال بغيرها فكرًا فهذا يحاسب على الانشغال بغيرها.

---

(١) الوابل الصيب.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه النسائي.

الثالث: المحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها ووضوئها مجاهدًا نفسه في دفع الوسوسة والأفكار فهو في صلاة وجهاد وهذا تكفر عن سيئاته.

الرابع: المحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها مكملًا حقوقها كما ينبغي وهذا يثاب على ذلك.

الخامس: المحافظ عليها كما ينبغي دون نقص واضعًا قلبه بين يدي ربه عز وجل يكون في صلاته مشغولًا بربه عز وجل قرير العين به. وهذا يقربه ربه إليه سبحانه، نسأل الله أن يجعلها من هذا النوع آمين.

إذًا [١] مما سبق يتضح لنا أن للصلاة أركانًا وواجبات وسننًا ظاهرة، وروحها النية والإخلاص والخشوع وحضور القلب باطنًا.

والمعاني التي تتم بها حياة الصلاة:

المعنى الأول: النية[٢]:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ [٣] وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢]. والنية ليست قول القائل: «نويت فعل كذا» بل هو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله. فالعمل [٤] بدون نيةٍ عناء، وبدون إخلاصٍ رياء. عن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله ﷺ:«**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**» الحديث[٥].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين.

(٢) تزكية النفوس.

(٣) المقصود بالإرادة هنا: النية.

(٤) مختصر منهاج القاصدين.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

والنية الصالحة لا تغير المعاصي عن موضعها، فالطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية أو طاعة بالقصد، أما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد، ودخول النية في المعصية إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها. ففي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة**» الحديث.

المعنى الثاني: الإخلاص[١]:

وهو تجريد قصد التقرب لله عز وجل عن جميع الشوائب، بمعنى آخر: إفراد الله عز وجل بالقصد في الطاعات. والإخلاص شرط لقبول العمل الصالح. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]. وفي السنة قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «**أخلص دينك يكفك القليل من العمل ...** »**الحديث.**[٢]

والإخلاص يضاده الإشراك، وقد قيل: إن أشد شيء على النفس هو الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب. والشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة، بعضها جلي وبعضها خفي. وقد قيل: ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل. وليس للعبد نجاة من الشياطين إلا بالإخلاص، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣]

وبه فإنه علاج كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة، قال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما[٣].

---

(١) تزكية النفوس.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا.

(٣) تزكية النفوس.

المعنى الثالث: الخشوع[(١)]:

مَنْ أَحْسَنَ آداب الصلاة والتعظيم لله والهيبة له فإن ذلك يولد شيئين، وهما معرفة جلال الله تعالى وعظمته، ومعرفة حقارة النفس، وأنها مستعبدة، فيتولد من المعرفتين الاستكانة والخشوع، من ذلك الرجاء وهو زائد على الخوف، فالخوف [(٢)] هو تألم واحتراق بسبب توقع مكروه مستقبلًا، وهو يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات، والخوف القاصر يدعو إلى الغفلة والجرأة على الذنب والإفراط فيه يدعو إلى اليأس والقنوط، وأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال الرسول ﷺ: «**والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية...**» الحديث [(٣)]، والخوف يحرق الشهوات المحرمة وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الخشوع والذلة والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد، بل يصير مستوعب الهم بخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتضرع لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة، والبخل بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات، والخالق سبحانه وتعالى جمع لأهل الخوف المراتب الأربع التالية:

الأولى: الهدى.

أما الثانية: الرحمة:

قال تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]

الثالثة: العلم:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]

الرابعة: الرضوان:

---

(١) مختصر منهاج القاصدين.

(٢) تزكية النفوس.

(٣) رواه الشيخان.

قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]

وقد أمر الله عز وجل بالخوف، وجعله شرطًا في الإيمان، فقال عز وجل في محكم كتابه: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقال الرسول ﷺ: «لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع ...» الحديث.[١]

ومن ثمرات[٢] الخوف أنه يقمع الشهوات ويكدر اللذات، والخوف هو سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل؛ لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى.

والخوف إذا تجاوز حَدَّه (إفراط) خرج إلى اليأس والقنوط، وهذا مذموم، وما قصر عنه مذموم أيضًا؛ لأنه في غفلة وضعف إيمان، إذًا الخير في الاعتدال؛ لأن فيه فوائد الخوف، وهي الورع والتقوى والمجاهدة والفكر والذكر والتعبد ولسائر الأسباب التي تؤدي وتوصل إلى الله سبحانه وتعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل.

ومن أقسام الخوف من يخاف سكرات الموت وشدته، وسؤال منكر ونكير، والوقوف بين يدي الله تعالى، ومن المناقشة والعبور على الصراط والنار، وأعلاها رتبة الخوف من الحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين، أما ما سبق ذلك فهو خوف الزاهدين والعابدين، أما الرجاء [٣] فهو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب هاديًا إلى الطاعة زاجرًا عن المعصية، هذا هو الرجاء الصحيح ويسمى وجدًا وذوقًا وإدراكًا، وهذا إذا كان ما يلاقيك من محبوب، وذكرًا إذا كان من مكروه، وإن خطر عليك شيء

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) مختصر منهاج القاصدين.

(٣) تزكية النفوس.

في المستقبل وغلب على قلبك سمي انتظارًا وتوقعًا.

والرجاء أفضل من الخوف؛ لأنه يستقي في بحر الرحمة، وإذا كان بدون الأخذ بالأسباب فإنه يسمى غرورًا وحمقًا؛ لأنه داع إلى البطالة والانهاك في المعاصي والسيئات. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٨]

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه الأمور التالية:

أولًا: محبة ما يرجوه.

ثانيًا: خوفه من فواته.

ثالثًا: سعيه في تحصيله.

أما إذا فُقد شيء منها، فإنه يكون من باب الأماني، وشتان بين الرجاء والأماني، وحيث إن كل راج خائف والسائر على الطريق إذا خاف أسرع مخافة الفوات. وفي هذا الحديث نجد البيان عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة ...**» الحديث. [(١)] والرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود. وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي**» الحديث. [(٢)]

المعنى الرابع: حضور القلب:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقال النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» الحديث [(٣)]

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

إذًا فالقلوب ثلاثة: [١]

١- القلب الحي:

وهو ذلك القلب السليم الذي استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات وأقلعت عنه تلك الظلمات [٢]، وخلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة وتوكلًا وإنابةً وإخباتًا وخشيةً ورجاءً، إن أحبَّ أحب في الله، وإن أبغضَ أبغض في الله، وإن أعطَى أعطى لله، وإن منعَ منع لله.

٢- القلب المريض:

قلب استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواطف الأهوية، فللشيطان إقبال وإدبار ومجالات ومطامع ومداخل. وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنهم من هو مذبذب تارة وتارة، إما إلى السلامة أدنى، أو إلى العطب أدنى؛ لأن فيه داعيين: داعٍ يدعوه إلى الله والآخرة، وداع يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا وأدناهما إليه جوارًا.

٣- القلب الميت:

قلب خالٍ من الإيمان وجميع الخير، قلب مظلم قد أراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه؛ لأنه اتخذه بيتًا، وتحكم فيه بما يريد، وتمكن منه غاية التمكن، وهو قلب الكافر والمنافق، حيث إن الدنيا تسخطه وترضيه، ومخالطة صاحب هذا القلب سقم ومعاشرته سم ومجالسته هلاك.

---

(١) الوابل الصيب.

(٢) تزكية النفوس.

وهناك [١] علامات لمعرفة هذه القلوب، فالقلب الميت تمكن منه الشيطان وانتهى صاحبه، أما القلب الحي السليم، فإنه يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة؛ بعكس القلب المريض، آثر حب الدنيا واستوطنها حتى صار من أهلها كما قال الرسول ﷺ لعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ...**» الحديث. [٢]

إن الفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات والشبهات، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة. والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد، فالطاعات كلها لازمة لحياة القلب، والمعاصي كلها سموم للقلب وأسباب لهلاكه ومرضه، وهي أربعة:

١- فضول الكلام[٣]:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «**لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه. ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ...**» الحديث. [٤] والمعنى واضح فالحديث شرط الاستقامة باستقامة القلب، ثم شرط استقامة قلبه حتى يستقيم لسانه.

٢- فضول النظر:

جاء في المسند: قال رسول الله ﷺ: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره لله أورثه حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه ...**» الحديث. [٥] فإطلاق النظر يسبب فساد القلب، ويلبسه ظلمة ويعميه عن التمييز بين الحق والباطل والسنة والبدعة، ويشغل القلب وينسيه مصالحه، وينغمس في الغفلة، قال تعالى: ﴿قل

---

(١) تزكية النفوس.

(٢) رواه البخاري.

(٣) تزكية النفوس.

(٤) رواه أحمد.

(٥) رواه أحمد.

﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠] والجزاء من جنس العمل.

٣- فضول الطعام:

قلة الطعام توجب رقة القلب وقوة الفهم وانكسار النفس وضعف الهوى والغضب، وكثرة الطعام توجب عكس ذلك. عن المقدام بن معد يكرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كألا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه ...**» الحديث.[1]

٤- فضول المخالطة:

هي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات، وخسران في الدنيا والآخرة حيث أنه إذا ما فقد التمييز دخل الشر عليه.

٣- الصوم:

كما هو معلوم أن الصوم[2] له خصيصة ليست لغيره من العبادات وهي إضافته إلى الله عز وجل حيث يقول سبحانه: «**الصوم لي وأنا أجزي به**» الحديث.[3] كفى بهذه الإضافة شرفًا. وفضل الصوم لسببين هما:

أ) أنه سر وعمل باطن لا يراه الخلق ولا يدخله رياء.

ب) **أنه قهر لعدو الله؛** لأن وسيلة العدو الشهوات، وهي تقوى بالأكل والشرب، وبالصوم تضيق على الشياطين المسالك والمداخل التي سبق وأن ذكرتها.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) مختصر منهاج القاصدين.

(٣) الحديث القدسي، انظر: صحيح الجامع الصغير.

والصوم له ثلاث مراتب هي:

المرتبة الأولى: الدائرة الصغرى: وهو صوم العموم:

وهو الصوم الذي ينصح به الأطباء حيث يريح أجهزة الجسم المختلفة كالهضم، ويكون هذا الصوم للأسف بدون احتساب الأجر. بل قد يكون للمحافظة على الصحة العامة وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة.

المرتبة الثانية: الدائرة الوسطى: وهو صوم الخصوص:

وهنا تكون الدائرة أوسع في تهذيب النفس وتعويدها على الخير والنظام والطاعة والصبر والإخلاص. وهو كف النظر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام وعن المحرمات أو ما لا يفيد.

المرتبة الثالثة: الدائرة الكبرى: وهو صوم خصوص الخصوص:

وهنا تتسع الدائرة لتشمل ما سبق بالإضافة إلى الآداب وسائر الأحكام والفضائل في المساواة والمواساة والإحساس بإخوانه، وهو صوم القلب عن الخواطر الدنيئة والأفكار المبعدة عن الله تعالى وكفه عما سوى الله تعالى بالكلية، وفي الحديث (١) أن النبي ﷺ قال: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ...**» الحديث.

ومن سنن الصوم: يستحب الجود في رمضان وفعل المعروف وكثرة الصدقة، ودراسة القرآن وزيادة الاجتهاد فيه لا سيما في العشر الأواخر، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إن النبي ﷺ كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل، وأيقظ أهله وشد المئزر ... الحديث. (٢)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «**إن للصائم عند فطره دعوة**

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

ما ترد» الحديث.[١]

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال لما حضر رمضان: «قد جاءكم شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم ...» الحديث[٢]. هذا الصوم المفروض.

ولا بد أن نشير هنا إلى النوافل؛ حيث رحمة الله واسعة، وأبوابه مفتوحة ليل نهار، لا يكل ولا يمل، فالرسول ﷺ رغب في صيام أيام غير رمضان وبين فضلها وهذه الأيام هي:

١) صيام ستة أيام من شوال لقوله ﷺ: «من صام رمضان ثم أتبعه ستًا من شوال فكأنما صام الدهر ...» الحديث[٣].

٢) صوم عشر من ذي الحجة ويوم عرفة لغير الحجاج قال ﷺ: «صوم يوم عرفة يكفر سنتين ...» الحديث.[٤]

المقصود بالعشر من شهر ذي الحجة هي الأول «من اليوم الأول إلى اليوم التاسع» حيث قال ﷺ: «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام**» قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد؟ قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بماله ونفسه ثم لم يرجع من ذلك في شيء**» الحديث رواه البخاري.

٣) **صيام يوم عاشوراء** «اليوم العاشر من شهر المحرم» هذا يكفر سنة ماضية كما في

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه أحمد والنسائي.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

الحديث. [١]

٤) **صيام أكثر شعبان** «كان الرسول ﷺ يصوم أكثر شعبان...» الحديث. [٢]

٥) **صوم يومي الاثنين والخميس،** قال ﷺ: «تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم» الحديث. [٣] وسئل عن يوم الاثنين فقال: «ذلك يوم ولدت فيه وأنزل عليَّ فيه الوحي» الحديث.[٤]

وصيام داود عليه السلام: صيام يوم وإفطار يوم.

٤ - الصدقة

دعا [٥] الإسلام إلى البذل وحض عليه في أسلوب يستهوي الأفئدة ويبعث في النفس الأريحية ويثير معاني الخير والبر والإحسان، وكما سبق ذكرت في فضل حسن الخلق في الحث على الجود والمنافسة وذم الخلق السيئ كالشح والإسراف ... إلخ.

وليست الصدقة قاصرة على نوع معين من أعمال البر، بل إن القاعدة العامة تقول: إن كل معروف صدقة. وهذا بعض ما جاء في ذلك:

أنواعها ومميزاتها:

١) **قال رسول الله ﷺ:** «**على كل مسلم صدقة**»، فقالوا: يا نبي الله فمن لم يجد؟ قال: «**يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق**» قالوا: فمن لم يجد؟ قال: «**يعين ذا الحاجة الملهوف**» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «**فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر، فإنها صدقة**» ... الحديث.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه النسائي.

(٤) رواه مسلم.

(٥) فقه السنة.

المعنى هنا واضح وجلي: أي يعين ذا الحاجة المستغيث، سواء كان مظلومًا أو عاجزًا، ويعمل المعروف ويكف عن الشر وهو له صدقة.

٢) **الصدقة** [١] **ليست مقصورة على المال،** فقد جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**على كل نفس في كل يوم طلعت فيه الشمس صدقة منه على نفسه**». قلت: يا رسول الله من أين أتصدق وليس لنا أموال؟ قال: «**إن من أبواب الصدقة التكبير، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وأستغفر الله، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتعزل الشوك عن طريق الناس والعظم والحجر، وتهدي العمى، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه المستدل على حاجة له قد علمت مكانها، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك، ولك في جماع زوجتك أجر ...**» الحديث [٢].

نجد في هذا الحديث العظيم قمة التكافل الاجتماعي والترابط بين المسلمين.

٣) **كذلك ليست مقصورة على شيء معين،** ونجد في هذا الحديث أيضًا كيف تقابل أخاك المسلم بوجه حسن وأن لك أجرًا في ذلك حيث تغرس المودة والألفة. قال رسول الله ﷺ: «**من استطاع منكم أن يتقي النار فليتصدق ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة ...**» الحديث. [٣] وقال الرسول ﷺ: «**كل معروف صدقة. ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إنائه ...** » الحديث. [٤]

---

(١) الصدقة تكمل الزكاة كالنوافل والسنن للصلاة، أي من أراد الزيادة عن أركان الإسلام الخمسة فإن له مجال واسع (من الركن الثاني إلى الخامس).

(٢) رواه أحمد واللفظ له.

(٣) رواه أحمد ومسلم.

(٤) رواه أحمد والترمذي.

وقال ﷺ: «لا يغرس مسلم غرسًا ولا يزرع زرعًا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة ...» الحديث. (١)

المعنى: أن الصدقة ليست مقصورة على الإنسان بل قد تكون الصدقة على الحيوان.

وقال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصدقة: الصدقة على ذي الرحم الكاشح...**» الحديث. (٢)

الكاشح: أي الذي يظهر العداوة، وبها تنطفئ نار العداوة، وتنقلب إلى العكس، تسامح ومودة.

خصائص الصدقة:

ومما تمتاز به الصدقة أنها من الأعمال الصالحة حتى ولو بعد الموت، قال رسول الله ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» الحديث. (٣)

إخفاؤها أفضل؛ لأنها تبطل بالمن والأذى والرياء، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]

لا يقبل الله الصدقة إذا كانت من حرام.

يجوز للمرأة أن تتصدق من بيت زوجها إذا علمت رضاه، ويحرم العكس.

جواز الصدقة على الذمي والأسير والحربي والحيوان والقريب، كما سبق ذكره.

للصدقة تأثير عجيب في دفع البلاء وغيره من الأذى. عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الصدقة تطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء**

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه أحمد ومسلم.

...» الحديث. [١]

وبالصدقة [٢] يذهبُ الله الكبر والفخر، كلما تصدق المتصدق بصدقة انشرح لها قلبه وانفسح بها صدره، فهي بمنزلة الجبة التي عليه فكلما تصدق اتسعت وانفسحت وانشرح صدره وقوي فرحه وعظم سروره، ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان حريًا بالعبد أن يستكثر منها ويبادر إليها. والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة.

روى [٣] عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذكر لي أن الأعمال تتباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم.

الصدقة تفدي العبد من العذاب وتفكه منه، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار ...**» الحديث. [٤]

قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والصدقة تطفئ غضب الرب» الحديث. [٥]

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال ...**» الحديث [٦] – أي الصدقة تزيد في المال ويكون صاحبها من الفالحين، كما في الآية، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) الوابل الصيب.

(٣) رواه أحمد.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

(٥) رواه الطبراني في الأوسط.

(٦) رواه مسلم.

معالجة الآفات النفسية والخلقية

بما تم ذكره يتبين لنا الآثار الإيجابية والعلاج. قال [١] ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب وقوةً في البدن، وسعة في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق.

وقال [٢] عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما عمل رجلٌ عملًا إلا ألبسه الله تعالى رداءه، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

ولعله [٣] قدر للإنسان أن يعاني نفسيًا أو عقليًا في وقت ما من عمره من بعض الخوف والقلق، وأحيانًا يفقد الإنسان عقله تمامًا وما من أحد إلا أصابه القلق والتوتر في وقت ما بسبب أو بدون سبب «كالتفكير في بعض الأمور» وهذا ما بينته إحصائيات منظمة الصحة العالمية، وتؤكد أن ٤٠٪ من المرضى المترددين على تخصصات الطب المختلفة لا يعانون من أي مرض عضوي، بل هم في حاجة إلى رعاية نفسية.

فالقلق والتوتر أصبح سمة أساسية للحياة الحديثة وكلما ازدادت المدنية ازدادت متطلبات الحياة تعقيدًا، وازدادت أسباب القلق والتوتر، حيث إننا نعيش في عصر طغت فيه المادة على كل شيء وأصبحت المنافسة رهيبة تصل أحيانًا إلى الصراع الدموي وتغيرت قيم كثيرة تتنافى أو تتعارض مع طبيعة الإنسان الأصلية، وأصبح الإنسان في هذا العصر يلهث دائمًا؛ لتحقيق تطلعاته التي لا تنتهي فيزداد قلقه وتوتره، ومن الغريب أن إنسان القرن العشرين صار أكثر شقاء وبؤسًا من إنسان القرون السابقة برغم انتصاراته ومكاسبه بفضل العلوم والاختراعات التي ذللت العقبات

---

(١) الوابل الصيب.

(٢) الوابل الصيب.

(٣)) مجلة التوحيد عدد ٦/١٤١٢هـ.

وزادت من الإمكانيات واختصرت الوقت والجهد، وبرغم هذا فإن الأمراض النفسية في المجتمعات والأفراد لم تترك عضوًا من أعضاء جسم الإنسان إلا هاجمته وأصابته بالمرض، فضغط الدم، وقرحة المعدة، وتصلب الشرايين، وآلام المفاصل، واضطراب المعدة والأمعاء من إسهال وإمساك، وسقوط الشعر، وفقدان القدرة الجنسية عند الرجل، والبرود الجنسي عند المرأة. وهناك العشرات من الأمراض العضوية والتي سببها الحياة المتوترة التي تضغط على الجهاز العصبي وبدوره يزيد من الهرمونات والعصارات والأنزيمات؛ ولذا يمكن القول دون مغالاة إن السعيد حقًا هو الذي يتمتع بالصحة النفسية التي تحقق له طمأنينة النفس، فلا مال أو منصب أو جاه أو جمال يمكن أن يحقق السعادة.

كما قال الإمام الشافعي في قصيدة طويلة منها:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد

وأحد أهم عوامل الصحة النفسية الجانب الروحي والعمل على تنميته وصحته وعافيته ولا يتم هذا في أكمل صوره صحة إلا بالإسلام؛ لأنه الدين الحق الذي أنزله العليم الخبير بمكونات وأسرار الإنسان النفسية، والإسلام لم يهتم بتحديد وتوفير الحاجات المادية المناسبة لصحة الإنسان العضوية، بل اهتم بوضع الأسس الكفيلة بتحقيق النفس المطمئنة الآمنة الراضية التي لا تعاني من التوتر أو الخوف أو القلق. وقد تطرقت في هذا المبحث إلى بعض منها في فصل صفات النفس وعلاجها (بالاعتدال) وفضل تربية النفس «بالذكر والصلاة والصوم والصدقة» وفق المبادئ والأهداف الإسلامية حسب الكتاب والسنة، وبذلك يتحقق للمسلم الأمن والطمأنينة الروحية وهما من أركان الصحة النفسية.

في تطهير النفس من أمراضها

أمراض النفوس نوعان: نوع ينافي مقامات القلوب، فالرياء والشرك ينافيان

التوحيد والعبودية، وحب الرئاسة والدنيا ينافيان الزهد، ونوع ينافي التخلق بأسماء الله والاقتداء بالرسول، فالغضب في غير محله ينافي الحلم، وذكرنا أمراض القلوب أولًا؛ لأن جوانب من التخلية تتقدم جوانب التحلية، وإنما قلنا (جوانب) لأن تحلية القلب والجوارح بالتوحيد هي المقدمة لكل تخلية وتحلية.

واقتصرنا على أمهات الأمراض، وذكرنا المشهورات التي تترك آثارها الخطيرة على الحياة البشرية، التي يجب أن يتحرر منها المسلم، مقدمين الكلام عن الكفر والنفاق والعصيان والبدعة، وليس الكفر مرضًا فحسب، بل هو موت القلب، وقد رأينا أن منبع الرذائل والأمراض لا بد من التذكير به.



الكفر والنفاق والفسوق والعصيان والبدعة

أول ما يجب تطهير القلب منه هو الكفر بالله والرسول ﷺ، وما يكون عَلَمًا على الكفر من إنكار المعلوم من الدين بالضرورة، أو إتيان ناقض من نواقض الشهادتين، فالكفر ظلمات لا ينفع معه عمل.

ثم يطهر نفسه من **النفاق النظري**؛ وهو اعتقاد خلاف ما أظهره من الإيمان بالإسلام، ومن **النفاق العملي**؛ وهو التخلق بأخلاق المنافقين كموالاة الكفار أو إخلاف الوعد أو اعتياد الكذب أو الخيانة، وغير ذلك من أخلاقهم. ثم يطهر نفسه من الفسوق والعصيان فلا يقارب المنهيات، ولا يخالف المأمورات، ويبتعد عن الفواحش ظاهرها وباطنها.

ثم يطهر نفسه من بدع الاعتقاد والعمل، وضابط البدعة: أن يكون على عمل لم يعمل به النبي ولم يجزه أئمة الاجتهاد، فمن فعل ذلك وجب عليه التوبة منها.

وأخطر الأشياء الكفر، فيجب أن يفتش الإنسان في قلبه دائمًا إن أتى بما ينقض الشهادتين، وعليه أن يفتش في قلبه إن كان فيه نفاق أو خلق من أخلاقهم فيفزع إلى الذكر والقرآن، فيكون صديقًا، ولا يصاحب أهل الشر فيكون زنديقًا.

وعليه أن يتفطن للمعاصي الظاهرة والباطنة كبيرها وصغيرها، وبخاصة غير المحسّة، كمعاصي القلب واللسان.

والمعصية ليست البدعة، فالعاصي يعرف أنه عاصٍ، أما المبتدع فيرى أنه على حق، وأنه بها أقرب إلى الله، وأخطر البدع بدع الاعتقاد، وبدع الأعمال المجمع علي بدعيتها عند أئمة الاجتهاد، وبدع الاعتقاد كثيرة نتج عنها انشقاقات كثيرة عن أهل السنة

والجماعة، كالمرجئة والشيعة والخوارج والمعتزلة، فالإرجاء قائم على أنه لا تضر مع الإيمان معصية، والتشيع قام على الغلو في آل البيت، والخارجية قامت على الورع الجاهل وغير ذلك، والاعتزال قام على التوسع في التأويل.

فعليك أيها السالك أن تتخلص من أنواع الابتداع مع توقيك الكفر والنفاق والعصيان، تزدد هدًى. قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]

فإذا ما طهّر الإنسان نفسه من تلك الأدران المذكورة، فعليه أن يتابع تطهير نفسه من بقايا الشرك الظاهر والخفي.



في الشرك والرياء

أفظع الأمراض الشرك، فهو إعطاء الربوبية لغير مستحقها، وتقديم العبودية لمن لا يستأهلها، وتشتيت للقلب، والمسلم الموحد قد يصيبه شرك خفي هو الرياء، وهو مرض خطير على صاحبه والأمة، فهو خداع للنفس وإهلاك لها في الدنيا والآخرة.

إن أعظم ما يحرص المؤمن عليه هو نجاة نفسه عند الله، فإن أول من تسعر بهم النار المرائي بجهاده أو بعلمه أو بكرمه.

والمرائي لا تستقيم له الحياة، فهو لا يتعامل إلا إذا عرف عمله، وكثير من الصالحات لا تقوم بذلك، كما أن الإسلام قد يواجه الرأي العام الظالم والمرائي يرفض ذلك، لهذا كان الرياء خطيرًا على صاحبه وعلى الأمة.

بيان درجات الرياء:

أبواب الرياء ليست على سواء؛ لاختلاف أركانه، وأركانه ثلاثة: المراءى به، والمراءى لأجله، ونفس قصد الرياء.

الركن الأول: نفس قصد الرياء، وهو إما مجردًا دون إرادة عبادة الله والثواب، وإما مع إرادة الثواب، فإن كان كذلك فإما أن تكون إرادة الثواب أغلب أو أضعف أو مساوية فتكون الدرجات أربعًا:

الأولى:لا يراد الثواب أصلًا، وهو أغلظها، كالذي يصلي بين الناس فإذا انفرد لم يصلِّ، وهو ممقوت عند الله، وهذه الدرجة العليا من الرياء.

الثانية: أن يقصد الثواب قصدًا ضعيفًا، بحيث لو كان في الخلوة لم يفعله، وهو قريب مما سبقه وما فيه من شائبة قصد الثواب لا ينفي عنه المقت والإثم.

الثالثة: أن يكون قصد الثواب والرياء متساويين، فلو كان كل واحد منهما خاليًا عن الآخر لم يبعثه على العمل، فلما اجتمعا انبعثت الرغبة، ونرجو لهذا ألا يكون له ولا عليه، أو أن يكون له من الثواب مثل ما له من العقاب، وظواهر الأخبار على أنه لا يسلم.

الرابعة: أن يكون اطلاع الناس مقويًا لنشاطه، ولو لم يكن لما ترك العبادة، وهذا ـ والله أعلم ـ لن يحبط أصل الثواب، ولكنه ينقص عنه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء، ويثاب على مقدار قصد الثواب.

الركن الثاني: المراءى به وهو الطاعات، وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات، والرياء بأوصافها.

القسم الأول: الرياء بالأصول وهو أغلظها، وهو على ثلاث درجات:

الأولى: الرياء بأصل الإيمان، وهو أغلظ الأبواب، وصاحبه مخلد في النار، وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة، ويبطن تكذيبهما، ذكرهم الله في مواضع شتى فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ [آل عمران:١١٩]، وكان يكثر ذلك النفاق في ابتداء الإسلام، هو يقل اليوم، ولكن يكثر نفاق من ينسل من الدين فيجحد بعض ثوابته، ويبيح موانعه، وليس بعد هذا الرياء رياء، حال أصحابه أشد من حال الكفار المجاهرين، لأنهم جمعوا بين الكفر الباطن والنفاق الظاهر.

الثانية: الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، وهو عظيم عند الله لكنه دون الأول، ومثاله: أن يصوم الرجل رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر، فهذا منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت، وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد.

الثالثة: لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض، ولكنه يرائي بالنوافل التي لو تركها لا يعصي، ولكنه يكسل عنها، وذلك كحضور الجماعة في الصلاة، وهذا عظيم عند الله

لكنه دون ما قبله، فكأنه شطر من الأول وعقابه نصف عقابه.

القسم الثاني: الرياء بأوصافها لا بأصولها، وهو على ثلاث درجات:

الأولى: أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة، كأن يريد أن يخفف السجود فإذا ما رأى الناس أحسن السجود، وهذا فيه تقديم للمخلوقين على الخالق، ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات.

الثانية: أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه، ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته، كالتطويل في الركوع والسجود، ومد القيام وتحسين الهيئة، وإعتاق الرقبة الغالية في الكفارة، وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكألا يقدم عليه.

الثالثة: أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضًا كحضوره الجماعة قبل القوم، وقصده للصف الأول، وكل ذلك مما يعلم الله أنه لو خلا بنفسه لم يبال أين يقف، فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى من يراءى به وبعضه أشدّ من بعض، والكل مذموم.

الركن الثالث: القصد والغرض الذي حصل الرياء لأجله، فإن للمرائي مقصودًا لا محالة كأن يكون لإدراك مال أو جاه أو غرض، وله ثلاث درجات:

الأولى: وهو أشدها، أن يكون مقصوده التمكن من معصية، كالذي يرائي بإظهار التقوى، وغرضه أن يعرف بالأمانة، فيولى القضاء أو الأوقاف أو الوصايات.

الثانية: أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو غيره، كالذي يظهر الحزن، ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال، وهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه.

الثالثة: ألا يقصد نيل حظ أو إدراك مال أو غيره، لكن يظهر العبادة خوفًا من أن يُنْظَرَ إليهِ بعينِ النَّقصِ، ولا يعد من الخاصة والزهاد، كالذي يمشي مستعجلًا فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كي لا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من

أهل الوقار.

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر، يزل فيه فحول العلماء فضلًا عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم.

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه:

عرفت مما سبق أن الرياء محبط للعمل، سبب لمقت الله تعالى، وأنه من الكبائر المهلكات، فيجب على من ابتلي بهذا المرض أن يسعى إلى شرب الأدوية وإن كانت مرة بشعة، ولا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة، ولكنها تشق أولًا وتخف آخرًا وفي علاجه مقامات (أحدها) قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه، و(الثاني) دفع ما يخطر منه في الحال.

المقام الأول: في قلع عروقه واستئصال أصوله. وأصله حب الجاه، ويفصل إلى ثلاثة أصول وهي: لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس.

وليس يخفى أن الإنسان يقصد الشيء لظنه الخير له فيه، إما في الحال وإما في المآل، فإن علم أنه لذيذ في الحال ضار في المآل سهل قطع الرغبة عنه، كأن يعلم أن العسل لذيذ لكنه يمتنع عنه لكونه مسمومًا، فكذلك قطع رغبة الرياء لما فيه من مضار.

والدواء العملي لهذا: أن يعوّد نفسه إخفاء العبادات؛ حتى يقنع قلبه باطلاع الله على عبادته فلا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به. فلا دواء للرياء مثل الإخفاء، وهو شاق أول المجاهدة، فإذا ما صبر هان عليه وأمده الله بحسن التوفيق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١٢]، فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية، العبد يقرع الباب والله يفتحه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]

المقام الثاني: في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضًا، فإن

من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء فإن الشيطان يعارضه في العبادات بخطرات الرياء، فلا بد أن يدفع ما يعرض له من خاطر، وخواطر الرياء ثلاثة، الأول: العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم. ثم يتلوه رجاء مدحهم، ثم يتلوه رغبة قبول النفس له. فالأول: معرفة، والثاني: حالة تسمى الشهوة. والثالث: فعل يسمى العزم وتصميم العقد. وكمال القوة في دفع الأول قبل أن يأتي الثاني، فإن أتى الثاني دفعه باطلاع الله عليه وعدم منفعة ذلك، فإن أتى الثالث دفعه بذكر ما رسخ في القلب من قبلُ من آفةِ الرياءِ.



في حب الجاه والرئاسة

العمل المنطلق من حب الجاه ينتج عنه انغماس في الأخطاء، لاقتضاء الجاه تصرفات غير مشروعة أحيانًا، وهذا يجعل الإنسان يقصر في الخير، والتنافس عليه يؤدي إلى الشرور، كما أنه يؤثر على أصل النية فيحبط العمل، لذا فهو مرض خطير علاجه ضروري.

بيان ما يحمد من الجاه وما يذم:

الجاه الذي هو ملك القلوب والقدرة عليها كالمال فهما من أعراض الدنيا، يمكن أن يتزود منهما للآخرة، كما أنه لا بُدَّ منهما للمعيشة، ولا يخلو إنسان عن الحاجة إليهما، فالإنسان يحتاج مثلًا إلى إنسان يرشده وسلطان يحرسه.

وحب الجاه والمال لأجل التوصل إلى مهمات البدن غير مذموم، فإن جاوز حبهما ضرورة البدن فمذموم، ولكنه لا يوصف صاحبه بفسق أو عصيان، ما لم يحمله على مباشرة معصية، أو اكتسابه بعبادة، فالتوصل إليهما بالعبادة جناية على الدين وهو حرام، يرجع إلى الرياء المحظور.

بيان علاج حب الجاه:

من أحب الجاه والشرف قصر همه على مراعاة الخلق ومراءاتهم، فلذلك فقد شبههما النبي في إفسادهما للدين بذئبين ضاريين، وحب الجاه منبت للنفاق، ولذا فهو مِنَ المهلكاتِ يجبُ علاجُهُ، ويكونُ ذلكَ بالتفكرِ في الأخطار الدنيويةِ التي تصيب أرباب الجاه، فهم محسودون مقصودون بالإيذاء، خائفون على جاههم.

أما من حيث العمل: فإسقاط الجاه عنْ قلوب الخلق بمباشرة أعمال يلام عليها

حتى يسقط من أعين الخلق ويقنع بالقبول من الخالق، غير جائز، بل أقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس، والهجرة إلى موضع الخمول، فالمعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو من حب المنزلة الذي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته، فقد يكون بذلك مغرورًا. وفتنة حب الجاه عظيمة، علاجها القناعة، فإن استغنى عن الناس لم ينشغل قلبه بالناس. ولا يُترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع.



في الحسد

الحسد: بغض وقوع النعمة بالمحسود، وليس فقط تمني زوال النعمة عن المحسود، وهذه في بعض حالاتها كبيرة من الكبائر، فهو الذي أهلك أهل الأديان السابقين، وهو الذي يمكن أن يهلك هذه الأمة، فقد قال ﷺ: «دب بينكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول: الحالقة التي تحلق الشعر، وإنما الحالقة التي تحلق الدين»

القول في بيان ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته:

بيان ذم الحسد:

الحسد من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب، وللحسد فروع ذميمة، وقد ورد في الحسد أخبار كثيرة. قال ﷺ: **«الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»**، وقال بعض السلف: أول خطيئة هي الحسد، حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له، وقال أبو الدرداء: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده، وقال أعرابي: ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه.

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه:

لا حسدَ إلَّا على نعمةٍ، فإذَا أنعمَ اللهُ على أخيك فلك فيها حالتان: إما أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى حسدا، وإمّا ألا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذه تسمى غبطة، وقد تختصّ باسم المنافسة.

فأما الأول فهو حرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر يستعين بها على

تهييج الفتنة، فلا يضرك محبتك زوالها، ويدل على تحريم الحسد الأخبار، ففيها تسخط لقضاء الله، ولذلك لا عذر فيه ولا رخصة، قال تعالى: {إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها} [آل عمران: ١٢٠] وهذا الفرح شماتة، والحسد والشماتة متلازمان، وحكمه التحريم.

وأما المنافسة: فليست بحرام بل هي إما واجبة أو مندوبة أو مباحة، وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة، والمنافسة بدل الحسد، والذي يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [الحديد: ٢١]، فلا حرج على من يغبط غيره في نعمة ويشتهي لنفسه مثلها طالما لم يحب زوالها عنه ولم يكره له دوامها.

وللحسد مراتب أربع، (الأولى) أن يحب زوال النعمة عنه وإن كان ذلك لا ينتقل إليه وهذا غاية الخبث. (الثانية) أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته فيها، فمطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه، ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها. (الثالثة) ألا يشتهي عينها لنفسه بل يشتهي مثلها، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما. (الرابعة) أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه.

وهذا الأخير معفو عنه إن كان في الدنيا، مندوب إن كان في الدين، والثالثة فيها مذموم وغير مذموم، والثانية أخف من الثالثة، والأولى مذموم محض. وتسمية الرابعة حسدًا من المجاز، وهو مذموم لقوله تعالى: {ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض} [النساء: ٣٢]، فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم، أما تمنيه عين ذلك فهو مذموم.

بيان أسباب الحسد والمنافسة:

السبب الأول: العداوة والبغضاء، وهو أشد أسباب الحسد، والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فيحب له البلايا، ويغتم بنعمته، ولكن غاية التَّقي ألا يبغي، فأما أن يبغض إنسانًا ثم يستوي عنده مسرته ومساءته فهذا غير ممكن.

السبب الثاني: التعزز؛ وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره. فإذا أصاب بعض

أمثاله علمًا مثلًا خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره، وليس غرضه أن يتكبر بل أن يدفع كبره، فإنه يرضى بمساواته ولكن لا يرضى بتكبره.

السبب الثالث: الكبر؛ وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له، فإذا نال نعمة خاف ألا يتحمل تكبره، بل ربما يتشوق إلى مساواته فيعود متكبرًا بعد أن كان متكبرًا عليه، ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]

السبب الرابع: التعجب، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السابقة إذ قالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥]، فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم؛ جزعًا أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة، لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أو سبب آخر من سائر الأسباب.

السبب الخامس: الخوف من فوت المقاصد، وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كل واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عونًا له في الانفراد بمقصوده، ومن هذا الجنس تحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية.

السبب السادس: حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود. وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه فريد العصر في فنه، فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك وأحب موته، أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه المنزلة، وليس السبب إلا محض الرياسة بدعوى الانفراد.

وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله ﷺ ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم.

السبب السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى، فإن هناك من لا ينشغل برئاسة وتكبر ولا طلب مال، ولكن إذا وصف عنده حال عبد من عباد الله فيما أنعم عليه يشق عليه ذلك، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وتنغص عيشهم فرح به، فهو يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته.

ومعالجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب يتصور زوالها، وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر إزالته. فهذه أسباب الحسد قد يجتمع بعضها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك، فيقوى قوة لا يقدر على الإخفاء والمجاملة، بل يهتك حجاب المجاملة ويظهر العداوة بالمكاشفة. وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب، وقلما يتجرد سبب واحد منها.

بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب:

الحسد داء عظيم، ولا تتداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لهذا الداء أن تعرف أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما. فإن عرفت ذلك تحقيقًا، فارقت الحسد لا محالة.

وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل، فينبغي أن يكلف نفسه نقيضه، فإن حمله الحسد على القدح في محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه، فمهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد.

فهذه أدوية الحسد وهي نافعة جدًا، إلا أنها مرة على القلوب جدًا، لكن النفع فيها، ومن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء.

فأما الدواء المفصل فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وشدة الحرص وغير ذلك، فإنها مواد هذا المرض، ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة، ولا يزال يعود مرة بعد مرة ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده، وما دام الإنسان محبًا للجاه فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه دونه، وإنما غاية الأمر أن يهون الغم على نفسه، ولا يظهر بلسانه ويده، فأما الخلو عنه رأسًا فلا يمكنه والله الموفق.

بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب:

اعلم أن المؤذي ممقوت بالطبع، ومن آذاك فلا يمكنك إلا بغضه، وإذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك إلا كرهها له، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له، ولكن إن قوي ذلك فيك حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل فأنت حسود عاص بحسدك، وإن لم تظهر ذلك وأبطنته وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضا حسود عاص، لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل، أما الفعل فهو غيبة وكذب، وهو عمل صادر عن الحسد وليس هو عين الحسد، ولا يجب الاستحلال من الحسد بل يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح، وإنك إن كففت ظاهرك وألزمت باطنك مقت الحسد، فقد أديت الواجب عليك.

وإن لك من أعدائك ثلاثة أحوال:

أحدها: أن تحب مساءتهم بطبعك، وتكره حبك لذلك، وتمقت نفسك عليه، وتود لو كانت لك حيلة في إزالة الميل عنك، وهذا معفو عنه لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه.

الثاني: أن تحب وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك، فهذا هو الحسد المحظور قطعًا.

الثالث: وهو بين الطرفين، أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك،

ومن غير إنكار منك على قلبك، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه، وهذا في محل الخلاف. والظاهر أنه لا يخلو من إثم بقدر قوة ذلك الحسد وضعفه.



في العُجب

قال ﷺ: «إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوًى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك» ولهذا أفتى رسول الله من يجد ذلك بالعزلة، مع كونه يحض على التعاون على الخير لخطورة تلك الآفات.

العجب يصاحب الرضا عن النفس، والرضا عن النفس يتفرع منه الكثير من التقصير، والكثير من الأمراض، ولهذا فهو مرض خطير على الإنسان والأمة، وإذا كان هذا المرض منصوصًا عليه فيجب على كل مسلم أن يسعى في التخلص منه، والإعجاب بالرأي يعالج بالخضوع للشورى، واتباع الهوى يعالج بالوقوف عند النصوص، والشح يعالج بالكرم، وحب الدنيا يعالج بتذكر الآخرة والعمل لها.

بيان ذم العجب:

العجب مذموم في كتاب الله، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢]، وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه، وقال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب. فالسعادة تكون بالسعي والجد، والقانط لا يسعى، وكذلك المعجب يعتقد أنه قد سَعِدَ فلا يسعى.

بيانُ آفةِ العجْبِ:

آفات العجب كثيرة، فهو يدعو إلى الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة، هذا مع العباد، أمَّا مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب أو استصغارها فلا يجتهد في تدارك الأمر ويظن أن سيغفر له. وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويعمى عن آفاتها، فيكون أكثر سعيه ضائعًا، فالأعمال الظاهرة إن لم تكن خالصة من

الشوائب قلما تنفع. والمعجب يعتز بنفسه ويأمن مكر الله، ويظن أنه بمكان عنده، والمعجب برأيه يمتنع عن الاستفادة والاستشارة والسؤال فيستبد برأيه ويستنكف عن سؤال من هو أعلم منه، ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنه أنه فاز، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. نسأل الله تعالى حسن التوفيق لطاعته.

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدهما:

لا يكون العجب إلا بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل وحال وغيره حالتان (إحداهما) أن يكون خائفًا على زواله أو تكدره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب. (والأخرى) أن يكون خائفًا من زواله لكن يكون فرحًا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى لا من حيث إضافته لنفسه وهذا ليس بعجب أيضًا. (وله حالة ثالثة) وهي العجب: وهي أن يكون غير خائف عليه بل يكون فرحًا به مطمئنًا إليه، ويكون فرحه من حيث أنه كمال ونعمة لا من حيث أنه عطية من الله ونعمة منه، فيكون فرحه من حيث أنه صفته لا من حيث أنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه، فالعجب إذن: استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم، فإن أضيف على ذلك أن ظن أن له عند الله حقًا، وتوقع بعمله كرامة في الدنيا، وجزاءً حسنًا في الآخرة، سمي هذا إدلًالًا بالعمل، والإدلال وراء العجب، فلا مدلّ إلا وهو معجب ولا ينعكس، فالعجب يحصل باستعظام النعمة دون توقع الجزاء، والإدلال يكون بتوقع الجزاء، والعجب والإدلال من مقدمات الكبر وأسبابه، والله تعالى أعلم.

بيان علاج العجب على الجملة:

علاج كل علة مقابلة سببها بضده، وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة، فالعجب الداخل تحت اختيار العبد كالعبادة أغلب من العجب بالجمال والنسب، وما لا يدخل تحت اختياره.

فنقول: الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي يعجب به الإنسان إنما يعجب به من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه فيه وعليه من جهة غيره وهذا جهل، فالمحل مسخر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد، وإن كان يعجب به من حيث هو منه وإليه وباختياره حصل، فينبغي أن يتأمل في قدرته وسائر الأسباب التي بها يتم العمل من أين كانت له؟ فذلك كله نعمة من الله عليه من غير حق سبق له أو وسيلة، فالإعجاب يكون بكرم الله فهو أفاض عليه بما لا يستحق، وآثره به على غيره.

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه:

العجب يكون بالأسباب التي بها يتكبر، وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يزين له بجهله. فما به العجب ثمانية أقسام:

الأول: أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وتفصيل خلقته، وينسى أنه نعمة من الله، وهو بعرضة إلى الزوال، وعلاجه التفكر في أقذار باطنه، وفي الوجوه الجميلة كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع.

الثاني: البطش والقوة، قالت عاد ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وقد يتكل المؤمن على قوته، ويورث العجب بالقوة إلقاء النفس في التهلكة، وعلاجه هو أن يعلم أنها قد تسلب منه بأدنى آفة إذا أعجب بها.

الثالث: العجب بالعقل والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدنيا والآخرة، وثمرته الاستبداد بالرأي فينتج عنه قلة الإصغاء إلى أهل العلم، وعلاجه شكر الله على ما رزقه من العقل، والتفكر أنه بأدنى مرض يصيب الدماغ كيف يجن ويضحك الناس منه، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلًا وإن اتسع علمه، وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم، فإن القاصر العقل لا يعلم قصور عقله، فعليه أن يعلم مقدار عقله من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجبًا.

الرابع: العجب بالنسب الشريف حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه وأنه مغفور له، ويظن أن الناس خدم له وعبيد، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف على النفس، وقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٢]، فمن عرف أن شرفه بقدر تقواه وكان من عادة آبائه التواضع، اقتدى بهم في التقوى والتواضع.

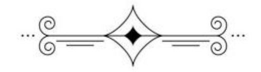
الخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم، وهو غاية الجهل، وعلاجه التفكر في مخازيهم، وظلمهم عباد الله، والفساد في دين الله، وأنهم ممقوتون عند الله.

السادس: العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والأقارب والأنصار كما قال الكفار ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [سبأ: ٣٥]، وعلاجه التفكر في ضعفه وضعفهم، ثم كيف يعجب بهم وهم سيفترقون عند الموت فيدفن في قبر ذليلًا مهينًا، فكيف تتكل على من لا ينفعك، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك؟

السابع: العجب بالمال كما قال الله إخبارًا عن صاحب الجنتين إذ قال: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله، وينظر إلى فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة يوم القيامة، والخوف من التقصير في القيام بحقوق المال، فمن لم يقم بحق المال فمصيره الخزي، فكيف يعجب بماله؟

الثامن: العجب بالرأي الخطأ، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [غافر: ٨]، وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف، والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جدًا. لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه، إلا إذا كان معجبًا

بجهله فإنه لا يصغي إلى العارف ويتهمه، فقد سلط الله عليه بلِيّةً تهلكُهُ، وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه مما يظنه سبب سعادته، وعلاجه على الجملة أن يكون متهمًا لرأيه إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامعٍ لشروطِ الأدلةِ، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها إلا بقريحة تامة، وممارسة للكتاب والسنة، ومجالسة أهل العلم طول العمر، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور، فسأل الله السلامة من الضلال والاغترار.



في الكبر

الكبر ابن العجب، فجعلناه بعده في الذكر، وقد عرفه رسول الله ﷺ بقوله: «غمط الناس وبطر الحق» وذلك جذره العميق هو العجب.

وإذا انتشر الكبر بين الناس لم تعد لأحد هيبة ولا حرمة ولا أدب مع الناس، ولا يمكن التفاهم بين الناس إلا بالقهر، وهو مرض نفسي يترتب عليه ما يترتب، فيجب على كل ذي رأي أن يبادر إلى تصفية نفسه من هذه الشائبة.

بيان حقيقة الكبر وآفته:

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، والباطن خلق في النفس، والظاهر أعمال تصدر عن الجوارح، وهو بالخلق الباطن أحق، أما الأعمال فهي ثمرات لذلك الخلق، وأصله الركون إلى رؤية النفس على المتكبر عليه، فالكبر يستدعي متكبرًا به وعليه، وبه ينفصل عن العجب، المتكبر يحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى اعتقاده وعزة في نفسه، ومتى عظمت نفس الإنسان عنده حقر من دونه وأقصاه عن نفسه، وإن وُعِظَ استنكف من القبول، وإن رد عليه في شيء غضب، وينظر إلى العامة كأنما ينظر إلى حمير، والأفعال الصادرة عن الكبر أكثر من أن تحصى، وهو آفة عظيمة غائلته هائلة، يهلك فيه الخواص من الخلق، قلما ينفك عنه الزهاد والعلماء فضلًا عن عوام الناس، ودليل عظمة آفته قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فهو حجاب دون الجنة، فهو يحول دون أخلاق المؤمنين كلها، والأخلاق أبواب الجنة، والكبر يغلقها، فهو لا يتواضع والتواضع رأس أخلاق المتقين وفيه العز، ولا يترك الحقد، ولا يدوم على الصدق، ويغضب، ولا يكظم غيظه، ويحسد، ولا ينصح متلطفًا، ولا يقبل

نصيحة، ويزدري الناس، ويغتاب الناس، وترك ذلك كله هو العز، وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له، قال تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وأخبر تعالى أن أشد أهل النار عذابًا أشدهم عتيًا على الله.

بيان المتكبر عليه ودرجات الكبر وأقسامه:

اعلم أن المتكبَّر عليه هو الله تعالى، أو رسله، أو سائر خلقه، والتكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام:

الأول: التكبر على الله؛ وهو أفحش أنواع الكبر، ومثاره الجهل المحض والطغيان مثلما كان من النمرود، ومن ادعى الربوبية كفرعون وغيره، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [فاطر: ٦٠].

الثاني: التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس، وترفعها عن الانقياد لبشر مثلهم، وذلك يصرف تارة عن التفكر والاستبصار فيظل في ظلمة الجهل، وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل، قال تعالى حاكيًا قولهم: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ [المؤمنون: ٤٧]

وهذا الكبر قريب من التكبر على الله تعالى وإن كان دونه، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله ﷺ.

الثالث: التكبر على العباد؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزيدهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم، وهو دون ما سبق ولكنه عظيم من وجهين؛ أحدهما: أن الكبر والعز لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد الضعيف فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فإنه إن تكبّر نازع الله في صفة لا تليق إلا بجلاله.

بيان ما به التكبر:

اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال، وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار، فهذه سبعة أسباب.

الأول: العلم؛ وما أسرع الكبر إلى العلماء، فإنهم يستشعرون في أنفسهم جمال العلم وكماله، ويستحقرون الناس.

والعالم المتكبر يستجهل الناس ويعتقد أنه أكرمهم، وغير ذلك مما يتعلق بأمور الدنيا، أما أمر الآخرة فهو يرى لنفسه مكانًا عند الله، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لهم، وتسمية من ظن ذلك جاهلًا أولى من تسميته بالعالم، فالعلم الحقيقي هو معرفة الإنسان نفسه وربه، فإن سألت عن سبب ازدياد الناس بالعلم كبرًا وأمنًا فاعلم أن ذلك إنما يكون لسببين: (أحدهما) أن يكون اشتغاله بما يسمى علمًا وليس علمًا حقيقيًا، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن.

(السبب الثاني) أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخيلة، فإنه لم يشتغل بالعلم أولًا لتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم صادف العلم من قلبه منزلًا خبيثًا فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره.

الثاني: العمل والعبادة، وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا.

(أما في الدنيا) فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم في المجالس بالورع وذكرهم

بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق.

(وأما في الدين) فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيًا وهو الهالك تحقيقًا.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملًا وعلمًا، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له موال وعبيد ويأنف من مخالطتهم، وثمرته على اللسان التفاخر به، وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحًا وعاقلًا، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه.

الرابع: التفاخر بالجمال وذلك أكثر ما يجري بين النساء ويدعو ذلك إلى التنقص والغيبة وذكر عيوب الناس.

الخامس: التكبر بالمال، وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم وبين التجار في بضائعهم، وغير ذلك، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى.

السادس: الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلاميذ والغلمان والعشيرة والبنين، ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود، وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين.

وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالًا وإن لم يكن في نفسه كمالًا أمكن أن يتكبر به، حتى إن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته في صنعة المخنثين، فهو يرى كمالًا في ذلك، فنسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير.

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر:

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل، كصعر في وجهه أو شزر في نظره أو إطراقه رأسَه وجلوسه متربعًا أو متكئًا، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد،

ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله. فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض.

ومنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه، ومنها ألا يمشي إلا ومعه غيره ويمشي خلفه، ومنها ألا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع، ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه، ومنها ألا يتعاطى بيده شغلًا في بيته، والتواضع خلافه، ومنها ألا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته، وهو خلاف عادة المتواضعين، ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبي ﷺ: **«البذاذة من الإيمان»**

وسئل النبي ﷺ عن الجمال في الثياب، هل هو من الكبر؟ فقال: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»، فكيف الجمع بينهما؟ اعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال، فإن جودة الثياب ليس من ضرورته أن يكون من كبر، وقد يكون ذلك من الكبر.

وعلى الإنسان أن يتواضع، ومن التواضع أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذي وأخذ حقه، فذلك هو الأصل. وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي ﷺ. فبه ينبغي أن يُقْتَدى ومنهُ ينبغي أنْ يُتَعَلَّم

بيان الطرق في معالجة الكبر واكتساب التواضع:

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين، وفي معالجته مقامان **(أحدها)** استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب. **(الثاني)** دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.

(المقام الأول) في استئصال أصله، وعلاجه علميًا وعمليًا، ولا يتم الشفاء إلا

بمجموعهما:

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه ويكفيه من ذلك إزالة الكبر، فإنه إن عرف نفسه تواضع وذل، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة إلا بالله.

وأما العلاج العملي: فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، من أحوال الصالحين وأحوال النبي ﷺ، حتى أنه كان يأكل على الأرض كما يأكل العبد. ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أمر العرب المتكبرين على الله بالصلاة ففي جملتها التواضع، إلا أن النفس قد تدعي التواضع وهي كاذبة، وبيانه أن تمتحن النفس بخمس امتحانات، وإن كانت الامتحانات كثيرة:

الامتحان الأول: أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر على تنبيهه، فذلك يدل على أن فيه كبرًا دفينًا فليتق الله فيه؛ أما من حيث العلم فيذكر نفسه خستها وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى، وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء، ويقر على نفسه بالعجز، ويشكره على الاستفادة.

الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر، فليواظب عليه تكلفًا حتى يسقط عنه ثقله، وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر، بل ينبغي أن يقدم ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال، فذلك يخرج خبث الكبر من الباطن.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل عليه فهو كبر، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب

عليها جزيل، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر.

الامتحان الرابع: أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر، وإن كان يثقل عليه مع مشاهدة الناس فهو رياء، وكل ذلك من أمراض القلوب.

الامتحان الخامس: أن يلبس ثيابًا بذلة، فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر، روي أن أبا موسى الأشعري قيل له: إن أقوامًا يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس، وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يختص بالملأ فهو الرياء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر، فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه، ومن لا يدرك المرض لا يداويه.



في الشح

يستحيل مع الشح الألفة والحياة الجماعية والتعاون فتستساغ بسببها العزلة، فيجف الخير من القلوب، وذلك أمر إذا حدث جلل، ومعالجة الشح ليست سهلة فالله تعالى جعله ملازمًا للنفس، حاضرًا دائمًا يحاول أن يحول بينها وبين البذل، فإذا ما أرادت أن تتصدق بأدنى شيء دافع الشح صاحبه وإذا أرادت أن تبذل أي شيء دافع الشح صاحبه.

بيان ذم البخل:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقال ﷺ: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»

وقال يحيى بن معاذ: ما في القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا فجارًا، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبرارًا. وقال ابن المعتز: أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه.

بيان الإيثار وفضله:

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات. فأرفع درجات السخاء الإيثار، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة. وإنما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه أو لغير محتاج، والبذل مع أشد الحاجة. وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو المرء على غيره مع الحاجة، فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل مع الحاجة.

قال عباس بن دهقان: ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها ولم يأكل منها إلا بشر بن الحارث فإنه أتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه إياه، واستعار ثوبًا فمات فيه.

بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما:

لعلك تقول: قد عرفت أن البخل من المهلكات، ولكن ما حد البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلًا؟ فما من إنسان إلا ويرى نفسه سخيًا، وما الحد الذي يصير الإنسان به سخيًا؟ فنقول: حد البخل منع الواجب، فكل من أدى ما يجب عليه فهو بخيل، والواجب قسمان: واجب بالشرع وواجب بالمروءة، والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة، فإن منع واحدًا فهو بخيل، إلا أن الذي يمنع واجب الشرع أشد بخلًا كالذي يمنع أداء الزكاة.

أما واجب المروءة: فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات، فإن ذلك مستقبح، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص، فما يستقبح من الغني مثلًا ليس كالذي يستقبح من الفقير، فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي ألا يمنع إما بحكم الشرع وإما بحكم المروءة، وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره، فمن أدى كلا الواجبين تبرأ من البخل، والجود درجات يتفاوت فيه الناس، شريطة أن يكون عن طيب خاطر لا لمصلحة ما، والجود هو بذل الشيء من غير عوض وهو متصور من الله تعالى، مجازُ الإطلاقِ على البشر فَهُمْ لا ينفقون إلا لغرض إلا إذا كان غرضه ثواب الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جوادًا.

بيان علاج البخل:

اعلم أن البخل سببه حب المال، ولحب المال سببان، أحدهما: حب الشهوات التي لا وصول لها إلا بالمال مع طول الأمل، فلو علم الإنسان أن مآله الموت ما بخل بماله، وإن كان قصير الأمل وله ولد أقام الولد مقام طول الأمل، قال ﷺ: «الولد مبخلة مجبنة مجهلة» فإذا أضيف إلى ذلك خوف الفقر قوي البخل لا محالة.

السبب الثاني: حب عين المال، وحب الاكتناز، وهو مرض عظيم عسير العلاج لا سيما إن كان في كبر السن، وهو مزمن، وغاية في الضلال، وعلاج كل ذلك بمضادة

سببها، فتعالج الشهوة بالقناعة، وطول الأمل بذكر الموت، والتفات القلب إلى الولد بأن خالقه يرزقه، ويعالج قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل، وكثرة التأمل في أحوال البخلاء وقبح خلقهم، فإن علم ذلك هاجت نفسه إلى البذل إن كان عاقلًا، فإن تحركت الشهوة رجع إلى الخاطر الأول، فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه منه.

فعلاج البخل بالعلم والعمل، فالعالم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود، والعمل يرجع إلى الجود على سبيل التكلف.

بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله:

اعلم أن المال خير من وجه وشر من وجه، فهو كالحية يؤخذ منها الترياق، ويأخذها الغافل فيقتله سمها، ولا يخلو أحد من سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف:

الأولى: معرفة مقصود المال، والغاية من خلقه، ولا يعطيه من همه فوق ما يستحق.

الثانية: مراعاة جهة دخل المال، فيتجنب الحرام المحض، وما غلبت الحرمة عليه، والجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة.

الثالثة: في المقدار الذي يكسبه منه فلا يستكثر ولا يستقل، بل على قدر الحاجة، والحاجة ملبس ومسكن ومطعم، ولكل منهم ثلاث درجات: أدنى، وأوسط وأعلى. والأفضل التقليل إلا إذا كان لِنِيَّةٍ.

الرابعة: مراعاة جهة المخرج والاقتصاد في الانفاق، فيضع ما اكتسبه من حله في حقه، فالإثم في الأخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء.

الخامسة: إصلاح النية في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك، فيأخذ ما يستعين به على العبادة، ويترك الباقي زهدًا واستحقارًا له، ولتكن نيتك في الأخذ والترك وجه الله تَكُنْ زاهدًا على الوجهين، ولا يتأتى ذلك إلا لمن رَسَخَ في الدين قدمه وعظم فيه علمه.

في الغرور

أول آثار الغرور السير وراء الأوهام، وانقضاء العمر فيها، وأكثر الناس كذلك ولذلك فهم يسيرون وراء السراب ولا يشعرون، قال ابن عطاء: (ما قادك شيء مثل الوهم)

ومن آثار الغرور رفض النصيحة، والبقاء في سلم الغلط أو في سلم الحياة لا ارتقاء ولا نهوض مع التلبس بالغلط.

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٢]، وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل دليل على ذم الغرور، فالغرور هو بعض أنواع الجهل، فالجهل هو: اعتقاد الشيء ورؤيته على خلاف ما هو به، والغرور: جهل إلا أن كل جهل ليس بغرور، بل يستدعي الغرور مغرورًا فيه مخصوصًا ومغرورًا به وهو الذي يغره. فمهما كان الجهل المعتقد شيئا يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلًا سمي الجهل الحاصل به غرورًا. فالغرور هو: سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه بالطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون، فأكثر الناس مغرورون إذن، وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض، وأظهرها وأشدها غرور الكفار والعصاة والفساق.

أنواع المغترين وبعض فرقهم:

(ففرقة) أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها، وأهملوا حفظ الجوارح عن المعاصي وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم، وهم مغرورون، فلو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان: علم معاملة، وعلم بالله وصفاته، ويسمى علم المعرفة. فأما العلم بالمعاملة: كمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تراد إلا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل.

وأما الذي يدعي علم المعرفة: كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضع أمر الله وحدوده فغروره أشد، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [غافر: ٢٨]

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم والعمل، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وغير ذلك، وربما لم يعرف أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها.

فهم زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم، والباطن هو الأصل، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

(وفرقة أخرى) علموا أن هذِهِ الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم، فإن ظهر عليهم مخايل الكبر وغير ذلك قالوا: إنما هذا طلب عز الدين وإظهار شرف العلم وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين، ويستنكف عن لبس الدون من الثياب لتوهمه أن ذُلَّهُ ذلٌ للإسلام، وليس ذلك بسبيل النبي ولا الصحابة، فهم قوم أعزهم الله بالإسلام لا يطلبون العز في غيره.

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم وطهروا الجوارح، واجتنبوا ظواهر المعاصي، وتفقدوا الأخلاق، ولكنهم بعد مغرورون؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها وأهملوها.

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمان، ولا يصح الإيمان إلا بتعلم جدلهم، وافترقوا فرقًا، ودعت كل فرقة إلى نفسها.

ثم هم فرقتان: ضالة ومحقة؛ فالضالة هي التي تدعو إلى غير السنة، والمحقة هي التي تدعو إلى السنة، والغرور يشمل الجميع، أما الضالة فإنها غفلت عن ضلالها وظنت النجاة، وأما المحقة فإنها اغترت من حيث ظنها أن الجدل أهم الأمور، وأفضل القربات إلى الله، وزعمها ألا يتم لأحد دينه ما لم يفحص ويبحث.

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بالوعظ والتذكير، وأعلاهم رتبة يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب، وهم مغرورون يظنون أنهم إذا تحدثوا في هذه الصفات صاروا موصوفين بها، وهم منفكون عنها، وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب.

(وفرقة أخرى منهم) عدلوا عن هذا المنهاج الواجب في الوعظ فاشتغلوا بالطامات والشطح، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع طلبًا للإغراب، وطائفة شغفوا بالنكت وتسجيع الألفاظ، وغرضهم تكثير الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة، فهؤلاء شياطين الإنس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل.

(وفرقة أخرى) قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات على وجهها، ويؤدونها دون إحاطة بمعانيها، وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم.

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلمِ النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به

وزعموا أنهم قد غُفِرَ لهم وأنهم من علماءِ الأمةِ، فقوامُ الدين بالكتاب والسنة، وقوامهما باللغة، فأفنوا أعمارهم في دقائق النحو وصناعة الشعر وفي غريب اللغة، فهم مغترون إلا من اتَّخذ هذه الدرجات منازل فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى باب العمل فطالب بحقيقته قلبه وجوارحه فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه ومنازل بالإضافة إليه، وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب.

(وفرقة أخرى) أهلموا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا فيها حتى خرجوا إلى العدوان.

(وفرقة أخرى) غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة وتخرج الصلاة عن الوقت، فإن دخل فيها وسوس له أثناء الصلاة، فلا تحضر قلوبهم، ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أول الصلاة فهم على خير عند ربهم.

(وفرقة أخرى) تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فيتشدد في النطق فيذهل عن معاني القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره، وهو أقبح أنواع الغرور.

(وفرقة أخرى) اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه وربما يختمونه في اليوم والليل مرة، لسانهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني فلا يتعظ ولا ينزجر ولا ينتهي بنواهيه، وهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه.

وقد يكون له صوت طيب فهو يقرأه ويلتذ به ويظن أن ذلك مناجاة، وهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرف أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته.

(وفرقة أخرى) اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو الأيام الشريفة وهم لا يحفظون ألسنتهم فيها عن الغيبة، ولا خواطرهم عن الرياء، ولا بطونهم عن الحرام عند

الإفطار وغير ذلك، وذلك غاية الغرور.

(وفرقة أخرى) اغتروا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال، وغير ذلك، ظانين أنهم على خير من ربهم، وهم مغرورون.

(وفرقة أخرى) أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه، وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرئاسة وإذا باشر منكرًا ورد عليه غضب إذ كيف يوعظ وهو الواعظ، فهو غرضه الرئاسة والرياء.

(وفرقة أخرى) حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، ترى أحدهم يفرح بصلاة الليل ولا يجد للفريضة لذة، فإن مثل هذا إن لم يحفظ الترتيب بين الفضائل كان مغرورًا.

(وفرقة أخرى) ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسماء والألفاظ فهو تلقّف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ظانًا أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فيتكبر ويستحقر العلماء، ويدعي أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين، وهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى.

(وفرقة أخرى) وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام وسوَّوا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي فلن أتعب نفسي، ويقول بعضهم: أن النظر إنما يكون إلى القلب، وقلوبنا وَالِهَةٌ بحبه تعالى، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(وفرقة أخرى) جاوزت حد هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلقت الحلال واشغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير

وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها، فهم يدعون حب الله ولا ينفكون عن مقارفة ما كرهه الله تعالى، وعن إيثار هوى النفس على أمر الله، وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق، ولو خلا لما تركه حياء من الله، وليس يدري أن ذلك يناقض الحب.

(وفرقة أخرى) ضيقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة، ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وشئون حياته، وأخذ يتعمق في غير ذلك، وليس يدري أن الله لا يرضى من عبده طلب الحلال فقط، بل يرضيه تفقد جميع الطاعات والمعاصي، فمن ظن أن تفقد بعض الأمور دون بعض يكفيه وينجيه فهو مغرور.

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق، وانشغالهم بفحص عيوب النفس، ومن جعل عمره في التفتيش عن عيوب النفس وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه.

(وفرقة أخرى) جاوزوا هذه الرتبة وابتدأوا سلوك الطريق وانفتحت لهم أبواب المعرفة، فكلما تشمموا من مبادئ المعرفة رائحة تعجبوا وفرحوا بها وأعجبتهم غرابتها فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها، وكيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم، وكل ذلك من الغرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية، فلو وقف مع كل أعجوبة قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد.

(وفرقة أخرى) جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات إليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله تعالى، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقفوا وغلطوا.

فإن قلت: فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد، وهذا يوجب

اليأس، فأقول: الإنسان إذا افتقرت همته في شيء أظهر اليأس منه، وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط الطرق في الوصول إلى الغرض، حتى إنه إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في السماء مع بعده عنه استنزله، فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه إلا شُغلٌ واحد وهو تقويم قلبه فإذا عجز عن تقويم قلبه وتخاذل، وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه؟ قلنا ليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم، فهذا لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم بإحسان. فلا يعجز عنه أيضا من صدقت إرادته وقويت همته.

فإن قلت: قد قربت الأمر فيه مع أنك أكثرت في ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور؟ فاعلم أنه ينجو بثلاثة أمور: بالعقل والعلم والمعرفة. فهذه ثلاثة أمور لا بُدّ منها.

أما العقل: فأعني به الفطرة الغريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء فالفطنة والكيس فطرة، والحمق والبلادة فطرة، والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور، فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بُدّ منهُ في أصل الفطرة، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن. نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة.

الثاني: المعرفة: وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور: يعرف نفسه، ويعرف ربه، ويعرف الدنيا، ويعرف الآخرة. فيعرف نفسه بالعبودية وأنه غريب عن هذا العالم، أجنبي من هذه الشهوات البهيمية، فإذا عرف نفسه وربه ثار من قلبه بمعرفة الله حبُ الله، وبمعرفة الآخرة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها، فإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته فيها، واندفع عنه كل غرور، أما إذا كانت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله فلا يمكنه الخلاص من الغرور. فإذا غلب حب الله على قلبه ومعرفته الله ونفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى:

المعنى الثالث وهو العلم: وهو معرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله، وما يقربه وما

يبعده، وبآفات الطريق وعقباته وغوائله، فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرتها. فإذا راعى العبد شرط الصدق وبقي عليه الخوف من أعظم الأخطار وهو الشيطان، فإن له مداخل وغرور، فيقول لمن أخلص: قد أعجزتني بذكائك وكمال عقلك، وقدرت أن تكون من جملة الأولياء وما قدرتُ عليكَ فما أصبرك! وما أعظم عند الله قدرك ومحلك إذ قوّاك على قهري ومكنك من التفطن لجميع مداخل غروري! فيصغي إليه ويصدقه ويعجب بنفسه فيكون بذلك غاية الغرور وهو المهلك الأكبر. فإن قلت فلماذا لم يعجب بنفسه وعلم أن ذلك من الله؟ فأقول: يخاف عليه الغرور بكرم الله من مكره حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل، ولا يخاف من الفترة والانقلاب، فيتكل على فضل الله دون الخوف من مكره، ومن أمن مكر الله فهو خاسر جدًا، فنسأل الله تعالى العون.



في الغضب الظالم

لا يخلو إنسان عن غضب، ورسول الله ﷺ كان يغضب، فأصل الغضب ليس عيبًا، وليس وجوده مرضًا، لكن هناك غضب في الباطل لا يصح، وهناك غضب ظالم فهذا الذي لا يصح، وهناك تسرع في الغضب وبطء في الفيء فذلك لا يصح، وهناك تصرفات أثناء الغضب لا يقرها شرع أو عقل فهذا لا يصح، ومن هٰهنا كان الكلام في الغضب يحتاج إلى تفصيل، فإنه لا يستحق السيادة إلا حليم، والغضب في غير محله لا تستقيم معه حياة اجتماعية، ولا علاقات صحيحة، ولا يحتاج الإنسان إلى تفكير كثير حتى يدرك مثل هذه الأمور، فغضبة واحدة قد تفسد علاقة بين جار وجار أو زوج وزوجة.

قال وهب بن منبه: للكفر أربعة أركان: الغضب والشهوة، والخرق، والطمع.

بيان حقيقة الغضب:

اعلم أن الله لما خلق الحيوان معرضًا للفساد والموت، بأسباب في داخل بدنه، وأسباب خارجة عنه، أنعم عليه بما يحميه من الفساد، ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سماه في كتابه.

أما السبب الداخلي: فهو أنه ركبه فخلق الغذاء الموافق لبدن الحيوان، وخلق فيه شهوة تبعثه على تناول الغذاء؛ كالموكل به في جبر ما انكسر، ليكون ذلك حفاظًا له من الهلاك.

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان: فكالسيف وسائر المهلكات، فافتقر إلى قوة وحمية تثور منه فتدفع المهلكات عنه، فخلق الله طبيعة الغضب وغرزها

بطبيعته، فمهما صدّ عن غرض من أغراضه، اشتعلت نار غضبه، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين، وإنما ينبسط الغضب إذا غضب على من دونه، واستشعر القدرة عليه، فإن صدر على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام، تولد انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزنًا، ولذلك يصفر اللون، وإن كان الغضب على نظير يشك فيه، تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب.

وبالجملة، فقوة الغضب محلها القلب، ومعناها: غليان دم القلب بطلب الانتقام، والناس في هذه القوة على درجات ثلاث من التفريط والإفراط والاعتدال.

أما التفريط: فبفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم، وهو الذي يقال فيه إنه لا حمية له.

وأما الإفراط: فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكر ولا اختيار، بل يصير في صورة المضطر. وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية: فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان، ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب؛ لأن الغضب من النار.

وأما الأسباب الاعتيادية: فهو أن يخالط قوما يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب، ويسمون ذلك شجاعة ورجولية، وليس كذلك فالغضب يعمي البصيرة، ويسد الآذان عن سماع الوعظ، فهي كالنار تحرق جميع ما يقبل الاحتراق، وربما تقوى نار الغضب فيموت صاحبه غيظًا كما ينهدّ الكهف إذا اشتدت فيه النيران، ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته، لسكن غضبه حياءً من قبح صورته واستحالة خلقته، وقبح باطنه أعظم من ظاهره، فالظاهر عنوان الباطن، وإنما قبحت صورة الباطن أولًا ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيًا، فتغير الظاهر ثمرةُ تغير الباطن فقس الثمرة بالمثمر فهذا أثره في الجسد.

وأما أثره في اللسان: فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل، ويستحي منه قائله عند فتور الغضب، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ.

وأما أثره على الأعضاء: فالضرب والتهجم والتمزيق، والقتل عند التمكن من غير مبالاة، فإن هرب منه المغضوب عليه يعدو كالواله السكران، وربما يسقط سريعًا لا يطيق العدو لشدة غضبه، وقد يضرب الجمادات والحيوانات، ويتعاطى أفعال المجانين، فيشتم البهيمة والجمادات كأنه يخاطب عاقلًا.

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه، فالحقد وإضمار السوء وغير ذلك، فهذه ثمرة الغضب المفرط.

وأما ثمرة الحمية الضعيفة: فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة واحتمال الذل من الأخساء، وصغر النفس والقماءة، وهو أيضًا مذموم، فمن ثمراته عدم الغيرة على الحرم وهو خنوثة، ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات.

ومن فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه؛ إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة. ففقد الغضب مذموم، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده، فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله، فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه، ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور، فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سَورةِ الغضب.

بيان الأسباب المهيجة للغضب:

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها، وإزالة أسبابها؛ فلا بد من معرفة أسباب

الغضب، والأسباب المهيجة للغضب هي: الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي أخلاق رديئة مذمومة شرعًا، لا بُدَّ من إزالتها بأضدادها؛ فالزهو يموت بالتواضع، والعجب يموت بمعرفة نفسك، والفخر يزول بتذكر الأصل الأول، والمزاح يزول بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر، والهزل يزول بالجد في طلب الفضائل، والهزء يزول بالتكرم عن إيذاء الناس، ويزول التعيير بالحذر عن القول القبيح، وشدة الحرص تزول بالقناعة بقدر الضرورة طلبًا لعز الاستغناء.

وكل خلق من هذه الأخلاق يحتاج إلى تحمل مشقة، ويكون ذلك بمعرفة غوائلها لترغيب الناس عنها، والمواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة.

بيان علاج الغضب بعد هيجانه:

يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل.

أما العلم فهو ستة أمور:

الأول: أن يتفكر في الأخبار في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال، فيرغب في ثوابه، فحرصه على الثواب يطفئ عنه غيظه.

الثاني: أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول: قدرة الله عليّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيت غضبي عليه، لم آمن أن يمضي الله غضبه عليَّ يوم القيامة أَحوجَ ما أكونُ إلى العفوِ.

الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، والسعي في هدم أغراض العدو، والشماتة بمصائبه، فيخوّف نفسه في الدنيا إن كألا يخاف الآخرة، وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه، فهو متردد بين حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض، إلا أن يكون محذوره أن يتشوش عليه في

الدنيا فراغه للعلم والعمل، وما يعينه على الآخرة فيكون مثابًا عليه.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه، ومشابهة صاحبه للكلب الضاري، ومشابهة الحليم للأنبياء والعلماء، لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مَسْكَةٌ من عقلٍ.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ، فيقوم نفسه، ويفلل شَبَاةَ اعتدائِهِ.

السادس: أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده، فكيف يقول: مرادي أولى من مراد الله؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه.

وأما العمل: فأن تقول بلسانك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هكذا أمر رسول الله ﷺ عند الغيظ، فإن ظل بك ذلك فاجلس إن كنت قائمًا، واضطجع إن كنت جالسًا، واقرب من الأرض التي منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك، واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون؛ فإن سبب الغضب الحرارةُ، وسبب الحرارة الحركةُ.

فضيلة كظم الغيظ:

قال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وذكر ذلك في معرض المدح. وقال ﷺ: «أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة»

الآثار: قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

بيان فضيلة الحلم:

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أي تكلف الحلم، وإذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياديًا فلا يهيج غضبه، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفًا.

قال ﷺ: **« خمس من سنن المرسلين: الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر »**

الآثار: قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم. وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وألا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى.

بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام:

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله، فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة، ولا مقابلة التجسس بالتجسس، ولا السب بالسب، وكذلك سائر المعاصي، وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به.

وأما السب فلا يقال بمثله إذ قال رسول الله ﷺ: «إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه»

فأما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق، لما روي أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام، فذكر رجل خالدًا عند سعد، فقال سعد: مه، إن ما بيننا لم يبلغ ديننا، يعني: أن يأثم بعضنا في بعض، فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله؟

الدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنسبة إلى الزنا والفحش والسب، ما قاله ﷺ: «المتسابّان ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدي المظلوم» فأثبت للمظلوم

انتصارًا، فهذا هو القدر الذي أباحه هؤلاء، وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق. ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ولكن الأفضل تركه فإنه يجره إلى ما وراءه، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه.

القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق:

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجزٍ عن التشفي رجع إلى الباطن فصار حقدًا، ومعنى الحقد أن يلزم القلب استثقاله، والبغضة له، والنفار عنه، وأن يدوم ذلك ويبقى، فالحقد ثمرة الغضب.

والحقد يثمر ثمانية أمور: (الأول) الحسد: وهو أن يحملك الحقد على تمني زوال النعمة عنه.

(الثاني) أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء.

(الثالث) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك.

(الرابع) وهو دونه أن تعرض عنه استصغارًا له.

(الخامس) أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره.

(السادس) أن تحاكيه استهزاءً بِهِ وسخريةً منهُ.

(السابع) إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه.

(الثامن) أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة. وكل ذلك حرامٌ.

وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية، ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصي الله به كأن تستثقله في الباطن ولا تنهى قلبك عن بغضه، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة وغير ذلك. فهذا مما ينقص درجتك في الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل وإن كألا يعرضك لعقاب الله.

وللمحقود ثلاثةُ أحوالٍ عندَ القدرةِ: (أحدها) أن يستوفي حقَّه الذي يستحقه من

غير زيادة أو نقصان وهو العدل. (الثاني) أن يحسن إليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل. (الثالث) أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور، وهو اختيار الأراذل، والثاني: وهو اختيار الصديقين، والأول: وهو منتهى درجات الصالحين.



في حب الدنيا

حب الدنيا والاطمئنان لها ونسيان الآخرة يترتب عليه كسب يستحق به صاحبه دخول النار، وبأدنى تأمل يستطيع الإنسان أن يعرف كسب أهل الدنيا الذي يستحقون به النار، فصاحب الدنيا لا يهمه إلا قضاء شهواته دون قيود.

وقد عرف الله تعالى الدنيا في أكثر من مكان في كتابه ولم يحرمها كلها لأن الكثير مما يدخل في الدنيا لا بد منه لإقامة الحياة البشرية ولكن الموقف من الدنيا عامة، ومن كل فرد من مفرداتها يجب أن يكون منضبطًا بضوابط الشرع.

والله عز وجل طالب العبد بأن تكون الآخرة همه وأن يقف من الدنيا على حذر، وألا تكون الدنيا أكبر همه، وأن يضبط كل مفرد من مفرداتها على ضوء التكليف، فالاستكبار في الأرض والفسوق عن أمر الله أثر من آثار كون الدنيا هي الهدف الوحيد للإنسان، ولذلك كان ضبط النفس على أمر الله في شأن الدنيا، ومعالجة النفس من أهم ما يطالب به الإنسان، وهذه النقطة من أهم الفوارق بين أهل الكفر والإيمان.

إن فلسفة الرأسماليين والشيوعيين وكثير من أبناء هذا العالم تقوم على أن الدنيا هي الهدف الوحيد، ومن استهدف الآخرة من أبناء الأديان الأخرى من غير المسلمين يضلون الطريق إلى الآخرة، فلا جنة إلا بالإسلام.

ولذلك كان استهداف الآخرة من أهم ما ينبغي التذكير به والتربية عليه والدعوة له، للمسلمين وغير المسلمين.

بيان ذم الدنيا:

الآيات الواردة في ذم الدنيا كثيرة، وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف

الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة. وهو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها». وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة»

الآثار: قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلبًا ولا عن النار مهربًا؛ أولها: من عرف الله وأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها.

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد:

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي؟ وما الذي ينبغي أن يجتنب منها وما الذي لا يجتنب؟ فنقول: دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين، فالقريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت، والمتراخي المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت، فكل ما لك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك إلا أن جميع ما لك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيئان: العلم والعمل فقط؛ وأعني بالعلم: العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه وسمائه والعلم بشريعة نبيه. وأعني بالعمل: العبادة الخالصة لوجه الله تعالى، وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألذ الأشياء عنده فيهجر النوم والمطعم والمنكح في لذته لأنه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار حظا عاجلا في الدنيا. ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلًا بل هو من الآخرة، وكذلك العابد قد يأنس بعبادته حيث لو منع منها لكان ذلك أعظم عقوبة، حتى قال بعضهم: اللّٰهم ارزقني قوة الصلاة والركوع والسجود في القبر. فهذا قد صارت الصلاة عنده من

حظوظه العاجلة، وكل حظ عاجل ينطبق عليه اسم الدنيا، والدنيا من الدنو، ولكنا نعني هنا بالدنيا المذمومة ذلك.

القسم الثاني: وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلًا كالتلذذ بالمعاصي كلها، والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات، والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية، كالتنعم بالذهب والفضة والخيل المسومة، وغير ذلك، فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة، وفيها يعد فضولًا أو في محل الحاجة نظر طويل.

القسم الثالث: وهو متوسط بين الطرفين كل حظ عاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن. وكل ما لا بدَّ منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل. وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول، لأنه معين على القسم الأول. فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن متناولًا للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا، وإن كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثاني، وصار من جملة الدنيا. ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب، وحبه لله تعالى، وصفاء القلب لا يحصل إلا بالكف عن شهوات الدنيا، والأنس لا يحصل إلا بذكر الله، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة، ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاثة هي المنجيات المسعدات بعد الموت.

بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت هِمَمَ الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم ومورده:

الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان فيها حظ وله في إصلاحها شغل. فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك، أما الأعيان الموجودة التي هي عبارة عن الدنيا فهي الأرض وما عليها، ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام:

المعادن والنبات والحيوان. أما النبات: فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي، وأما المعادن: فيطلبها للآلات والأواني كالنحاس، وللنقد كالذهب ولغير ذلك من المقاصد. وأما الحيوان: فينقسم إلى الإنسان والبهائم. أما البهائم: فيطلب منها لحومها للمآكل، وظهورها للمركب والزينة. وأما الإنسان: فقد يطلب أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم كالغلمان؛ أو ليتمتع بهم كالجواري، ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاه؛ فالجاه ملك قلوب الآدميين. فهذه هي أعيان الدنيا، غير أن لها مع العبد علاقتين:

علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها، حتى يصير قلبه كالعبد المستهتر بالدنيا، ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد وغير ذلك، وهذه هي الدنيا الباطنة، وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها.

العلاقة الثانية مع البدن: وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره، وهي جملة الصناعات والحِرَفِ التي ينشغل بها الخلق، والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل، ولو عرف نفسه وربه وحكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التي هي الدنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله، والدابة هي البدن، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال.

فأشغال الخلق التي أكبوا عليها، وجرهم إليها الحاجة إلى القوت والكسوة، ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآبهم فتاهوا وضلوا، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة، فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدة أوجه:

فطائفة غلبهم الجهل والغفلة، لم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم، فهم

يجدُّون ليكسبوا القوت، ثم يأكلوا حتى يكسبوا، ويكسبوا ليأكلوا، وهو مذهب من ليس له تنعم في الدنيا ولا قَدَمٌ في الدين، وهو كَسَير السواني فهو لا ينقطع إلا بالموت.

وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا للأمر: وهو أنه ليس المقصود الشقاء بالعمل ولا التنعم بالدنيا وإنما السعادة في شهوة البطن والفرج، وهؤلاء يظنون أنهم إن نالوا ذلك أدركوا غاية السعادة؛ فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر.

وطائفة ظنوا أن السعادة في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز، فأخذوا يكتسبون ويجمعون لا يأكلون إلا قدر الضرورة شحًا وبخلًا عليها أن تنقص، وهذا دأبهم إلى أن يدركهم الموت، فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله، فيكون للجامع تعبه وللآكل لذته. ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون.

وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح والتجمل والمروءة، فهم يتعبون في كسب المعاش ويضيقون على أنفسهم في المطعم والمشرب، ويصرفون جميع ما لهم إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة، ويزخرفون ما تقع عليه أبصار الناس، حتى يقال هو غني، ويظنون أن ذلك هو السعادة، فهمهم في ليلهم ونهارهم هو موقع نظر الناس.

وطائفة ظنوا أن السعادة الجاه والكرامة بين الناس وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير، فصرفوا همهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة لطلب الولايات وتقليد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم على طائفة مِنَ الناس، ويرون أنهم بذلك يسعدون، وأن ذلك غاية المطلب، وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس، فهؤلاء شغلهم حبُّ تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعبادته، وعن التفكر في آخرتهم.

ووراء هؤلاء طوائف تزيد على نيف وسبعين فرقة، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، وإنما جرهم إلى ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن، ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة، فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب، فلا يخوض في شغل

وعمل إلا وهو عالم بمقصوده، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك، وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة، وإن عدى به قدر الضرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض إلى البعض، فتتشعب به الهموم في أودية الدنيا فلا يبالي الله في أي واد أهلكه منها. فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا، وانقسم هؤلاء إلى طوائف:

فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة، والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها، سواء تعبد أو لم يتعبد، فرأوا أن يقتلوا أنفسهم، وذهبت إليه طوائف من أهل الهند فهم يتهجمون على النار.

وظنت طائفة أن القتل لا يخلص بل لا بد من إماتة الصفات البشرية، وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب، فشددوا على أنفسهم حتى هلك بعضهم، أو جُنَّ، وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية، فظن الشرع محال بل لا أصل له فوقع في الإلحاد، وظهر لبعضهم أن هذا التعب من الله، فعادوا للشهوات وسلكوا طريق الإباحة، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم، فالله مستغن عن العبادة.

وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد إلى معرفة الله، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، وبعدها يستغني عن الوسيلة والحيلة، وأن التكليف إنما هو على العوام.

والناجي من كل تلك الفرق هي السالكة سبيل النبي ﷺ وأصحابه، وهو عدم ترك الدنيا بالكلية، ولا قمع الشهوات بالكلية، بل يأخذ من الدنيا بقدر الزاد، ويقمع من الشهوات ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل. حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر، وبقي ملازمًا لسياسة الشهوات ومراقبًا لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية، وهم الصحابة، فإنهم كانوا يأخذون من الدنيا للدين، وما

كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قوامًا، والمسلم إذا تعين لفرض كفاية، أصبح ذلك في حقه فرض عين فإذا قام به وصحت نيته فيه فذلك من أعمال الآخرة، وإن كان ظاهره من الدنيا، كالرئاسة والسياسة والتجارة وغير ذلك، حتى وإن ملك المليارات، ما قام بحق الله وكانت نيته لله.



في اتباع الهوى

إذا تأملت أمراض الحياة البشرية كلها: الكبر والعجب والحسد وحب الجاه والدنيا والزنا والفواحش والغيبة والنميمة، وكل ما يخطر على بالك من أمراض فإنك تجد وراءه شيئًا واحدًا هو اتباع الهوى، فالهوى في الأصل: ميل النفس الخاطئ، ولخطورة اتباع الهوى قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١]

ولأن الدافع لاتباع الهوى هو النفس درج على ألسنة السالكين (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) بل أعدى عدو للحياة البشرية كلها هو متابعة كل إنسان هواه. وإذ كانت النجاة من هذا هو تزكية النفس على مقتضى الكتاب والسنة، وحمل النفس على متابعة الكتاب والسنة، إذا كانت النجاة في ذلك، فكم هي جريمة الإنسان في حق نفسه والعالم إذ يرفض وحي الله أو يحاربه أو يحول بينه وبين التطبيق، وإذ كان كل ما في هذا الكتاب يخدم في معالجة اتباع الهوى، وإذ كان كل ما كتب في الإسلام وعن الإسلام هو نوع معالجة لاتباع الهوى، وإذ كان الكتاب والسنة جاءا لضبط أهواء البشر فإننا نكتفي بهذه الإشارة هٰهنا لتذكير المسلم بضرورة ضبط الهوى. ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩]

فهرس المحتويات

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

